آثار الفتنة على الإيمان في القُرآن والسنَّة (2)

د. مُحمَّد عُمر دولة [!]

المَبْحث الرابع: أثَرُ الفِتْنَةِ عَلَى الإيمان:

المَطْلَب الأول: فِتنةُ الكُفرِ والشِّرك:

لا شكَّ أنَّ لِلفِتنةِ أثَراً بالِغاً في أمْراضِ القُلوبِ وضَعْفِ الإيمانِ، وهي قَدَرٌ ماضٍ؛ لاختبارِ الإيمان، كما الله عزَّ وجَلَّ: {**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**}؟ (**العنكبوت: 1، 2**) قال ابنُ القيم رحمه الله: "الفتنةُ كِيرُ القلوبِ، ومَحَكُّ الإيمانِ؛ وبها يَتبيَّن الصادقُ مِن الكاذِب قال تعالى: {**ولقد فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهم فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبين**}؛ (**العنكبوت: 3**) فالفِتنةُ قَسَّمَت الناسَ إلى صادِقٍ وكاذِبٍ ومُؤمِنٍ ومُنافِقٍ وطَيِّبٍ وخَبيثٍ؛ فمَن صَبَرَ عليها كانت رَحمةً في حقِّه ونجا بِصَبْرِهِ مِن فِتْنةٍ أعظمَ منها، ومَن لم يَصْبِر عليها وَقعَ في فِتْنةٍ أشَدَّ منها؛ فالفِتْنةُ لا بُدَّ منها في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: {**يومَ هُم على النارِ يُفْتَنُون ذُوقوا فِتْنَتَكم هذا الذي كُنْتُم به تَسْتَعْجِلُون**} (**الذَّاريات: 13، 14**)".[1]

وقد ذَكَرَ العلماءُ أنَّ مِن مَعاني الفِتنةِ في كتابِ الله: "الشرك، ومنه: قوله تعالى: {**وقاتِلُوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ**} (**البقرة: 193**) والكُفر، ومنه قوله تعالى: {**فأما الذين في قُلُوبِهم**

[!] باحث بموقع شبكة المشكاة الإسلاميَّة على الإنترنت . السُّودان.

1 إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان 162/2.

زَيْغٌ فيَتَّبِعُون ما تَشابَهَ منه ابتِغاءَ الفِتْنَة} (آل عمران: 7) قال ابنُ الجوزي: وكذلك كلُّ فِتنةٍ مَذكورة في حقِّ المنافقين واليهود".[1] وقال الشوكاني في قولِ الله تعالى: {حتى لا تكونَ فتنةٌ}: "فسَّرَ جمهورُ السلفِ الفِتنةَ المذكورةَ هنا بالكُفر. وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لا تكونَ فِتنةٌ) حتى لا يُفْتَنَ مُسلمٌ عَن دِينِه".[2] وقال ابن الجوزي في قول الله تعالى: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} (البقرة: 191): "أما الفِتنةُ ففيها قولان: أحدهما: أنها الشرك، قاله ابن مسعود و ابن عباس وابن عمر وقتادة في آخرين، والثاني: أنها ارتدادُ المؤمنِ إلى عِبادةِ الأوثانِ، قاله مجاهد؛ فيكون معنى الكلامِ على القولِ الأولِ: شِركُ القومِ أعظمُ مِن قَتْلِكم إياهم في الحرَم، وعلى الثاني: ارتدادُ المؤمِنِ إلى الأوْثانِ أشَدُّ عليه مِنْ أنْ يُقتَلَ مُحِقّاً".[3]

وقد قرَّر القرآنُ أنَّ الكفارَ والمشركين يَفْتِنُون أهلَ الإيمانِ بِكلِّ الوَسائلِ؛ لِيَرُدُّوهم عَن دينِهم إن استطاعُوا، فيُسَلِّطُون عليهم ألْوانَ العَذاب، كما قال تعالى: {إنَّ الذين فَتَنُوا المؤمِنِين} (البروج: 10)، وقال عَزَّ وجلَّ: {ودُّوا لو تَكْفُرُون كما كَفَرُوا فتَكُونُون سَواء} (النساء: 92)، وقال جلَّ جَلالُه: {إنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكونُوا لكم أعْداءً ويَبْسُطُوا إليكم أيْدِيَهم وألْسِنَتَهم بالسُّوءِ ووَدُّوا لو تَكْفُرُون} (الممتحنة: 2)، وقال تعالى: {ولا يَزالُون يُقاتِلُونَكم حتى يَرُدُّوكم عَنْ دِينِكم إنْ استَطاعُوا} (البقرة: 217)، قال السعدي رحمه الله واصِفاً ما يَكِيدُه أعداءُ

1 نزهة الأعين النواظر ص 478.

2 فتح القدير 308/2. وقال ابن الجوزي: "قوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عباس والحسن و مجاهد وقتادة في آخرين: الفتنة هاهنا الشرك. وقوله تعالى (ويكون الدين لله) قال ابن عباس: أي يخلص له التوحيد". زاد المسير 200/1.

3 زاد المسير 198/1-199.

الإسلامِ لهذا الدّين: "هذا الوَصْفُ عامٌّ لِكلِّ الكفارِ: لا يَزالُون يُقاتِلُون غيرَهم؛ حتى يَرُدُّوهم عن دِينِهم، وخُصوصاً أهل الكتاب مِن اليهود والنصارى، الذين بَذَلُوا الجمعِيَّات، ونَشَرُوا الدُّعاة،[1] وبثُّوا الأطبّاء، وبَنَوا المدارسَ؛ لِجَذْبِ الأُمَمِ إلى دِينِهم، وتَدْخِيلِهم عَليهم كلَّ ما يُمْكِنُهم مِن الشُّبَهِ التي تُشكِّكُهم في دِينِهم".[2]

قال الله عزَّ وجَلَّ: {**وإذْ قالت طائفةٌ مِنْهم يا أهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لكم فارْجِعُوا ويَستأذِنُ فريقٌ منهم النبيَّ يقولُون إنَّ بيوتَنا عَورَةٌ وما هي بِعورةٍ إنْ يُريدُون إلا فِراراً ولو دُخِلَتْ عليهم مِنْ أقْطارِها**[3] **ثم سُئلُوا الفِتنةَ لآتَوْها وما تَلَبَّثُوا بها إلا يسيراً**} (الأحزاب: **13-14**). قال ابن الجوزي: "معنى (سُئلُوا الفِتْنة) أي سئلوا فِعْلَها، والفِتنةُ الشركُ (لآتَوْها) قرأ ابنُ كثير ونافع وابن عامر (لأتَوْها) بالقصر: أي لَقَصَدُوها ولَفَعَلُوها. وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي (لآتَوْها) بالمد: أيْ لأعْطَوْها، قال ابن عباس في معنى الآية: لو أنَّ الأحزابَ دخلوا المدينةَ ثم أمَرُوهم بالشِّركِ لأشْرَكُوا، قوله تعالى (وما تَلَبَّثُوا بها إلا يَسِيراً) فيه قولان: **أحدهما**: وما احتبسوا عن الإجابةِ إلى الكُفر إلا قليلاً، قاله قتادة، **والثاني**: وما تَلَبَّثُوا بالمدينة بعد الإجابةِ إلا يسيرا حتى يُعذَّبُوا، قاله السدي".[4]

وقال ابن القيم رحمه الله: "الكافِر مَفتونٌ بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مَفتونٌ به؛ ولهذا سألَ المؤمِنُون ربَّهم أنْ لا يَجْعَلَهم فِتْنةً لِلذين كفروا، كما قال الحنفاءُ:

---

1 دُعاة الكفرِ وتنصير المسلمين، أعاذ الله المسلمين من شرورهم، وردَّ كيدَهم إلى نُحورِهم.

2 تيسير الكريم الرحمن ص 97.

3 قوله تعالى: {**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا**} (**الأحزاب: 14**) يعني المدينة، والأقطار: النواحي والجوانب، واحدها قطر.

4 زاد المسير 6/359-362.

{رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} (الممتحنة: 4، 5)، وقال أصحابُ موسى ﷺ: {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (يونس: 85) قال مُجاهد: المعنى لا تُعذِّبْنا بأيْدِيهم ولا بِعَذابٍ مِن عِنْدِك؛ فيقولون: لو كان هؤلاء على الحقِّ ما أصابَهم هذا، وقال الزجاج: معناه لا تُظْهِرْهم علينا؛ فيظنُّوا أنهم على حَقٍّ؛ فيُفْتَنُوا بذلك. وقال الفراء: لا تُظْهِرْ علينا الكفارَ؛ فيروا أنهم على حقٍّ وأنَّا على باطلٍ، وقال مُقاتل: لا تُقَتِّرْ علينا الرِّزقَ وتبسطه عليهم؛ فيكون ذلك فِتنةً لهم. وقد أخبر الله سبحانه أنه قد فَتَنَ كلا مِن الفريقين بالفريقِ الآخر فقال: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} (الأنعام: 53) فقال الله تعالى: {أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}.[1]

المَطْلَب الثاني: الفِتنةُ قَدَرٌ لاختبارِ الإيمانِ:

لا ريب أنَّ الفِتنةَ قدَرٌ باقٍ وأمرٌ نافِذٌ، حتى إنَّ بَعضَها مَذكورٌ في علامات الساعة؛ مما يبين دلالاتها العقدية في وُجوب الإيمان بوقوعِها، والتعوذِ منها (كما هو الشأنُ في الإيمان بنزول المسيح عيسى بن مريم وقتله المسيح الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج...) وقد قال الله عزَّ وجَلَّ: {وَمَنْ يُرِد اللهُ فِتْنَتَه فلنْ تَمْلِكَ له مِن اللهِ شيئاً أُولَئكَ الذينَ لَمْ يُرِد اللهُ أنْ يُطَهِّرَ قُلوبَهم} (المائدة: 41) قال ابنُ الجوزي: "في الفِتنةِ ثلاثةُ أقوالٍ: أحدها أنها بمعنى الضلالة، قاله ابن عباس ومجاهد، الثاني العذاب قاله الحسن وقتادة، والثالث الفضيحة ذكره الزجاج. قوله تعالى: (فلن تَمْلِكَ له مِن الله شيئاً) أي لا تُغْنِي عنه ولا تَقْدِرُ على اسْتِنْقاذِه؛ وفي هذا تَسْلِيَةٌ للنبي ρ مِن حُزْنِهِ على مُسارَعَتِهم في الكُفر.

1 إغاثة اللهفان 164/2.

قوله تعالى (لم يُرِد اللهُ أنْ يُطَهِّرَ قُلوبَهم) قال السُّدِّي: يعني المنافقين واليهودَ لم يُرِد أنْ يُطَهِّرَ قلوبَهم مِن دَنسِ الكُفرِ ووَسَخِ الشِّركِ بِطهارةِ الإيمانِ والإسْلام".[1]

وقال ابن القيم رحمه الله: "إنَّ أفْضَلَ العَطاءِ وأجَلَّه على الإطلاقِ الإيمانُ وجزاؤه؛ وهو لا يتحققُ إلا بالامتحانِ والاختبارِ، قال تعالى: {**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**} (العنكبوت: **1–6**)، فذَكَرَ سبحانه في هذه السُّورةِ أنه لا بُدَّ أن يَمْتَحِنَ خَلْقَه ويَفْتِنَهم؛ لِيَتبيَّنَ الصادِقُ مِن الكاذِب، والمؤمِنُ مِن الكافِر، ومَنْ يَشكُره ويَعْبُده مِمَّنْ يَكفُره ويُعرِض عنه ويَعبُد غيرَه، وذَكَرَ أحْوالَ الممتَحَنِين في العاجِلِ والآجِلِ، وذَكَرَ أئمةُ الممتَحَنِين في الدنيا، وهم الرسلُ وأتباعُهم وعاقِبةُ أمْرِهم وما صاروا إليه، وافتتحَ بالإنْكارِ على مَنْ يَحسَبُ أنه يَتخلَّصُ مِن الامتحانِ والفِتنةِ في هذه الدارِ إذا دعا الإيمان، وأنَّ حِكْمتَه سبحانه وشأنَه في خَلقِه يأبى ذلك، وأخبر عَنْ سِرِّ هذه الفتنةِ والمحنة، وهو تَبْيِينُ الصادقِ مِن الكاذبِ والمؤمنِ مِن الكافرِ، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبلَ وُقُوعِه، ولكنْ اقتَضَى عَدْلُه وحَمْدُه أنه لا يَجزي العبادَ بِمُجرَّدِ عِلْمِه فيهم، بلْ بِمَعْلُومِه إذا وُجِدَ وتَحقَّقَ، والفِتنةُ هي التي أظْهَرَتْه وأخْرَجَتْه إلى الوُجُود؛ فحينئذ حَسُنَ وُقوعُ الجزاءِ عليه".[2]

---

1 زاد المسير 359/2.

2 شفاء العليل بمسائل القدر والتعليل 345/1.

وقد نقل القرطبي عند قولِ اللهِ تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} (العنكبوت: 1-3) قولَ ابن عطية: "هذه الآيةُ وإن كانت نزلَتْ بهذا السببِ أو ما في معناه من الأقوال؛ فهي باقيةٌ في أمةِ محمد ρ مَوْجُودٌ حُكْمُها بقيةَ الدهر؛ وذلك أنَّ الفِتنةَ مِن اللهِ باقيةٌ في ثُغُورِ المسلمين بالأسْرِ ونِكايةِ العدوِّ وغير ذلك. وإذا اعتبر أيضاً كل مَوضعٍ ففيه ذلك بالأمراضِ وأنواعِ المحن، ولكن التي تشبه نازلةَ المسلمين مع قريش هي ما ذكرناه مِن أمرِ العدو في كلِّ ثَغْرٍ" قال القرطبي: ما أحسنَ ما قالَه؛ ولقد صدق فيما قاله τ".[1]

وقد ترجم البخاري في كتاب (القدر) باب (وما جَعَلْنا الرؤيا التي أَرَيْناك إلا فِتْنةً للناس) قال ابن حجر: "وَجْهُ دُخُولِه في أبوابِ القَدَرِ مِن ذِكْرِ الفِتنةِ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي جَعَلَها، وقد قال موسى υ: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء} (الأعراف: 155)".[2] قال الشوكاني: " {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ} أي ما الفِتنةُ التي وَقعَ فيها هؤلاء السفهاءُ إلا فِتنتك التي تختبر بها مَن شئتَ، وتَمتحن بها مَن أردتَ؛ ولعلَّه عليه السلام استفاد هذا مِن قولِه سبحانه: {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ} (طه: 85)".[3]

1 الجامع 324/13.
2 فتح الباري 504/11-505.
3 فتح القدير 252/2.

وقال القرطبي عند قولِ الله تعالى: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا} (العنكبوت: 3): "أيْ فَلَيَرَيَنَّ اللهُ الذين صَدَقُوا في إيمانِهم".[1] وقال سيد قطب: "إن الإيمان ليس كلمةً تقال؛ إنما هو حقيقةٌ ذاتُ تكاليف، وأمانةٌ ذاتُ أعباء، وجهادٌ يحتاجُ إلى صَبر، وجُهدٌ يحتاج إلى احتِمالٍ. فلا يكفي أنْ يقولَ الناسُ: آمَنَّا، وهم لا يُترَكُون لهذه الدعوى؛ حتى يتعرَّضُوا للفتنةِ؛ فيَثبُتُوا عليها ويَخرُجوا منها صافيةً عناصِرُهم خالِصةً قُلُوبُهم، كما تَفْتِنُ النارُ الذهبَ؛ لِتَفْصِلَ بَينَه وبين العناصِرِ الرخيصةِ العالِقةِ به".[2]

ولله دَرُّ ابنِ القيِّمِ ما أحْسَنَ قولَه: (طُوبَى لِمَنْ أنْصَفَ رَبَّه, فأقرَّ له بالجهلِ في عِلمِه, والآفاتِ في عَمَلِه, والتفريطِ في حقِّه, والظلمِ في مُعاملتِه, فإنَّ أخْذَه بِذُنوبِه رأى عَدلَه, وإنْ لم يُؤاخِذْه بها رأى فَضلَه, وإنْ عملَ حسنةً رآها مِن مِنَّتِه وصَدَقَتِه عليه, فإنْ قَبِلَها فَمِنةٌ وصَدقةٌ ثانيةٌ, وإنْ ردَّها فلِكَوْنِ مِثلِها لا يصلُحُ أنْ يُواجِهَ به, وإنْ عَملَ سيئةً رآها مِن تَخَلِّيه عنه وخِذلانِه له وإمْساكِ عِصْمتِه عنه؛ وذلك مِن عَدْلِه فيه. فيرى في ذلك فَقرَه إلى ربِّه وظُلمَه لِنَفسِه, فإنْ غَفَرَها فبِمَحضِ إحْسانِه وجُودِه وكَرَمِه. ونكتةُ المسألةِ وسِرُّها أنه لا يرى ربَّه إلا مُحْسِناً, ولا يرى نفسَه إلا مُسيئاً أو مُفرِّطاً أو مُقصِّراً, فيرى كلَّ ما يَسُرُّه؛ مِن فَضلِ ربِّه عليه وإحْسانِه إليه, وكلَّ ما يسوءه؛ مِن ذُنوبِه وعَدْلِ الله فيه).[3]

المَطْلَب الثالث: دَوْرُ الفِتَنِ في انحرافِ العقائد:

فِتنةُ القُلُوب:

1 الجامع لأحكام القرآن 325/13.
2 في ظلال القرآن 2720/20.
3. الفوائد لابن القيم ص 33

لا شك أنَّ فِتنةَ القُلُوب فِتنةٌ في الدِّين؛ حتى إنَّ الفِتنةَ لَتَبْلُغُ مَوتَ القلبِ؛ حين يفقدَ قُدرتَه على تمييزِ المعروفِ من المنكَرِ والحقِّ من الباطل. وهل (يُقال للرجلِ: ما أجْلَدَه! ما أظْرَفَه! ما أعْقَلَه! وما في قَلبِه مِثقالُ حَبةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ)؛ لولا انتِكاسةُ القِيَمِ وعَمَى القُلوبِ، كما روى ابنُ أبي شيبة عن أبي الطُّفَيل τ[1] قال: قيل لحذيفةτ: ما مَيِّتُ الأحياء؟ قال: (مَن لم يَعرفْ المعروفَ بِقلبِه، ويُنكِر المنكَرَ بِقَلبِه).[2] وقد روى أبو جُحَيْفة[3] عن عليٍّ τ قال: (إنَّ أولَ ما تُغْلَبون عليه مِن الجهاد: الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم؛ فأي قلب لم يعرف المعروف ولا ينكر المنكر؛ نُكِسَ فجُعِلَ أعلاه أسْفَلَه).[4] وفي روايةٍ قال: (فيُنكَسُ كما يُنْكَسُ الجرابُ؛ فيُنثَر ما فيه).[5]

وقد حذَّرَت السنةُ النبوية مِن اسْتِشْرافِ الفِتنةِ والموجِ فيها؛ فإنَّ نتيجةَ ذلك الوقوعُ في الفِتنةِ والانكِسارِ في مَوجِها العاتي الذي لا يُبقي ولا يَذَر، كما روى طاوس عن أبي موسىτ أنه لَقِيَه فذكر الفتنةَ فقال: (إنَّ هذه الفِتنةَ حَيْصَةٌ مِنْ حَيْصاتِ

---

1 أبو الطُّفَيل: عامر بن واثلة، وُلِد عام أُحُد، ورأى النبي ρ وروى عن أبي بكر فمن بعدَه. وعُمِّر إلى أن مات سنة عشر ومئة على الصحيح، وهو آخرُ من مات من الصحابة، قاله مسلم وغيره. تقريب التهذيب لابن حجر مع تحرير تقريب التهذيب للشيخين بشار عواد وشعيب الأرناؤوط 174/2. مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1417 هـ.

2 مصنف ابن أبي شيبة 504/7. حديث 37577.

3 أبو جُحَيْفة: وهب بن عبد الله السُّوائي، مشهور بكنيتِه، ويقال له: وهب الخير، صحابيٌّ معروفٌ، وصحب عليّاً. ومات سنة أربع وسبعين. تقريب التهذيب لابن حجر مع تحرير تقريب التهذيب 71/4.

4 مصنف ابن أبي شيبة 504/7. حديث 37578.

5 مصنف ابن أبي شيبة 504/7. حديث 37579.

الفِتَن؛[1] وإنها لَقِيَتْ الرداح المطبقة، مَنْ أشْرَفَ لها أشْرَفَتْ له، ومَنْ ماجَ لها ماجَتْ له).[2] وروى ابنُ الأثير رحمه الله في (النهاية): "حديث أبي موسى سمعت رسول الله ρ يقول (سيأتي على الناسِ فِتنةٌ باقرةٌ تَدَعُ الحليمَ حَيران) أي واسعةٌ عظيمةٌ. وحديثه الآخر حين أقبَلَت الفِتنةُ بعد مقتلِ عثمان τ: (إنَّ هذه الفِتنةَ باقِرةٌ كداءِ البَطنِ لا يُدرَى أنَّى يُؤتَى له؟) أي أنها مُفْسِدةٌ للدِّينِ مُفَرِّقةٌ للناسِ. وشَبَّهها بداءِ البَطنِ؛ لأنه لا يُدْرَى ما هاجَهُ؟ وكيف يُداوَى ويُتأتَّى له؟"[3]

خَطرُ عَرْضِ الفِتَنِ على القلوب:

وقد ثَبَتَ في السُّنةِ النبويةِ أنَّ الفتنةَ تُعرَضُ على القلوبِ؛ مما يؤدِّي إلى رَفعِ الأمانةِ من بعض القلوب، وضعفِ الإيمان، كما روى حذيفةُ τ قال: حدثنا رسولُ الله ρ حديثين قد رأيت أحدَهما وأنا أنتظر الآخرَ، حدثنا أنَّ الأمانةَ نزلَتْ في جذرِ قُلوبِ الرجال ثم نزل القرآن؛ فعَلِمُوا مِن القرآنِ وعَلِمُوا مِن السُّنة. ثم حدَّثنا عَن رَفعْ الأمانةِ، قال: ينام الرَّجلُ النَّوْمَةَ فتُقبَضُ الأمانةُ مِن قَلبِه؛ فيظلُّ أثرُها مثل الوَكْت، ثم ينام النَّوْمة فتُقبَضُ الأمانةُ مِن قلبِه؛ فيظلُّ أثَرُها مِثلَ الْمَجْل[4] كجَمْرٍ[1] دَحْرَجْتَه على

---

1 قال ابن الأثير في (النهاية): "حديث أبي موسى: (إن هذه الفتنة حَيصةٌ مِن حَيْصاتِ الفتن) أي رَوغةٌ منها عدلت إلينا". النهاية في غريب الحديث 468/1.

2 مصنف ابن أبي شيبة 508/7. حديث 37619.

3 النهاية في غريب الحديث 144/1-145.

4 قال النووي: "أما قولهρ: (فيظل أثرُها مثل الوَكْت)، فهو بفتح الواو وإسكان الكاف وبالتاء المثناة من فوق، وهو الأثر اليسير كذا قاله الهروي، وقال غيره: هو سوادٌ يسيرٌ، وقيل: هو لونٌ يحدث مخالفٌ للون الذي كان قبلَه. وأما المجْلُ:فبفتح الميم وإسكان الجيم وفتحها لغتان والمشهور الإسكان... قال أهل اللغة والغريب: (المجل) هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها ويصير كالقبة فيه ماء قليل". شرح النووي على مسلم 168/2-169.

رِجْلِك فـنَفِطَ فتراه مُنْتَبِراً، وليس فيه شيءٌ، ثم أخذ حَصى فدَحْرَجَه على رِجْلِه؛ فيُصْبِح الناسُ يَتبايَعُون لا يكاد أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ؛ حتى يُقال: إنَّ في بني فلان رجلا أميناً حتى يُقال للرجل: ما أجْلَدَه! ما أظْرَفَه! ما أعْقَلَه! وما في قَلبِه مِثقالُ حَبةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ. ولقد أتَى عَليَّ زمانٌ، وما أُبالي أيُّكم بايعتُ لئن كان مُسلماً؛ لَيَرُدُّنَّه عَليَّ دينُه، ولئن كان نصرانيّاً أو يهوديّاً لَيَرُدَّنَّهُ عليَّ ساعِيهِ، وأما اليوم فما كنتُ لأبايِعَ مِنكم إلا فلاناً وفلاناً).[2]

ولا يخفى أثرُ ضَعفِ الإيمانِ في تشرُّبِ الفِتَنِ؛ ذلك أنَّ الفِتنَ تُصْبِحُ مادَّةً يَسْتَمِدُّ منها القلبُ؛ مما يُفْقِدُه استِقامتَه ونُورَه وإشراقَه؛ حتى يمتلىءَ القلبُ ظُلمةً ونُكَتاً سوداءَ؛ لِيَصيرَ الانحرافُ له طَبْعاً وسَجِيَّةً، وتلك هي الانتكاسةُ المذكورة في حذيث حذيفة τ قال: (كُنَّا عند عمر فقال: أيُّكم سمع رسولَ الله ρ يذكُر الفِتنَ؟ فقال قومٌ: نحن سمعناه. فقال: لعلَّكم تَعْنُون فِتنةَ الرجلِ في أهلِه وجارِه؟ قالوا: أجل، قال: تلك تُكفِّرها الصلاةُ والصيام والصدقةُ، ولكن أيُّكم سمع النبي ρ يذكر الفتنَ التي تموج مَوْجَ البحر؟[3] قال حذيفة: فأسْكَتَ القومُ،[4] فقلتُ: أنا، قال: أنتَ للهِ

---

1 ما أعظمَ هذا التشبيهَ وأصدقَه؛ ولا عجبا؛ فهو مِن علمِ حذيفةτ تلميذِ رسولِ اللهρ وطبيب القلوب، والعارف بأمورِ الإيمانِ والنفاقِ والعالم بشؤونِ الخير والشر!

2 صحيح مسلم 126/1-127.

3 وقوله (التي تموج كما يموج البحر) أي تضطرب ويدفع بعضها بعضا؛ وشبهها بموج البحر لشدة عظمها وكثرة شيوعها. شرح النووي 171/2.

4 وقوله (فأسكت القوم) هو بقطع الهمزة المفتوحة قال جمهور أهل اللغة: سكت وأسكت لغتان بمعنى صمت، وقال الأصمعي: سكت صمت وأسكت أطرق؛ وإنَّما سكت القوم لأنهم لم يكونوا يحفظون هذا النوع من الفتنة، وإنما حفظوا النوع الأول". شرح النووي 171/2.

أبوك![1] قال حذيفة: سمعتُ رسول الله ρ يقول: تُعرَضُ الفِتنُ على القلوبِ كالحصير عُوداً عُوداً،[2] فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء وأيُّ قلبٍ أنْكَرَها؛ نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاءُ؛ حتى تَصِيرَ على قَلبَيْن: على أبيضَ مثل الصفا؛ فلا تَضرُّه فِتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرض، والآخر أسودَ مِرْباداً[3] كالكُوزِ مُجَخِّياً؛[4] لا يَعرِفُ معروفاً، ولا يُنكِرُ مُنكَراً إلا ما أُشْرِبَ من هواه. قال حذيفة: وحدَّثتُه أنَّ بينَك وبينَها باباً مُغلَقاً يُوشِكُ أنْ يُكْسَر،[5] قال عمر: أكَسْراً لا أبالَك؟ [1] فلو أنه فُتِحَ لَعَلَّهُ كان يُعاد! قلتُ: لا بَلْ

---

1 قال النووي: "قوله (لله أبوك): كلمةُ مَدحٍ تعتاد العربُ الثناءَ بها؛ فإنَّ الإضافةَ إلى العَظيمِ تشريفٌ؛ ولهذا يُقال: بيتُ الله، وناقةُ الله. قال صاحب التحرير: فإذا وُجِدَ مِن الولدِ ما يُحمَد قيل له: لله أبوك؛ حيث أتى بمثلك". شرح النووي 171/2. قلت: وقد يُراد به الثناءُ على الولدِ بمشابهة أبيه كما قيل: (ومن يُشابِه أبَهُ فما ظَلَمْ)؛ ومنه قول النبي ρ في الثناء على عائشة: إنها بنت أبيها! والله تعالى أعلم.

2 قال النووي: "قوله ρ (تُعرَضُ الفتنُ على القلوبِ كالحصيرِ عُوداً عُوداً) هذان الحرفان مما اختلف في ضبطه على ثلاثة أوجه أظهرها وأشهرها عُودا بضم العين وبالدال المهملة، والثاني بفتح العين وبالدال المهملة أيضا، والثالث: بفتح العين وبالذال المعجمة ولم يذكر صاحب التحرير غير الأول، وأما القاضي عياض فذكر هذه الأوجه الثلاثة عن أئمته، واختار الأول أيضا قال: واختار شيخنا أبو الحسين بن سراج فتح العين والدال المهملة... قال: ومعنى عَوْداً عَوْداً: أي تُعاد وتُكرَّر شيئاً بعد شيء، قال ابن سراج: ومن رواه بالذال المعجمة فمعناه سؤال الاستعاذة منها كما يقال: غفرا غفرا وغفرانك أي نسألك أن تعيذنا من ذلك وأن تغفر لنا". شرح النووي 171/2.

3 قال النووي: "وقوله ρ: (حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مِرْبادا كالكوزِ مُجَخِّياً؛ لا يعرف معروفا ولا يُنْكِرُ مُنكَراً إلا ما أُشْرِبَ مِن هَواه) قال القاضي عياض رحمه الله: ليس تشبيهُه بالصَّفا بياناً لِبَياضِه؛ لكن صفة أخرى لشدتِه على عَقْدِ الإيمان وسَلامتِه مِن الخلل، وأنَّ الفِتنَ لم تَلْصَقْ به ولم تؤثِّر فيه كالصَّفا وهو الحجر الأمْلَسُ الذي لا يَعْلَقُ به شيء. وأما قوله (مِرْبادا) فكذا هو في روايتنا وأصول بلادنا، وهو منصوبٌ على الحال، وذكر القاضي عياض رحمه الله خلافا في ضبطه، وأن منهم من ضبطه كما ذكرناه ومنهم من رواه مربئد بهمزة مكسورة بعد الباء قال القاضي: وهذه رواية أكثر شيوخنا، وأصله أن لا يهمز ويكون مربد مثل مسود ومحمر، وكذا ذكره أبو عبيد والهروي وصححه بعض شيوخنا عن أبي مروان بن سراج لأنه من أربد إلا على لغة من قال: احمأر بهمزة بعد الميم لالتقاء الساكنين، فيقال: اربأد ومربئد والدال مشددة على القولين. وسيأتي تفسيره. شرح النووي 172/2-173.

4 وأما قوله (مُجَخِّياً) فهو بميم مضمومة ثم جيم مفتوحة ثم خاء معجمة مكسورة معناه مائلا كذا قاله الهروى وغيره. وفسَّره الراوي في الكتاب بقوله (مَنكوسا) وهو قريبٌ مِن معنى المائل". شرح النووي 173/2.

5 قوله: (حدَّثْتُه أنَّ بينَك وبينَها باباً مُغلَقاً يُوشِك أنْ يُكسَر، قال عمر τ: أكَسْراً لا أبا لك؛فلو أنه فُتِحَ لَعَلَّه كان يُعاد!) أما قوله (إنَّ بينَك وبينَها باباً مُغلَقاً) فمعناه: إنَّ تلك الفِتنَ لا يخرج شيء منها في حياتِك، وأما قوله (يوشك) فبضم الياء وكسر الشين ومعناه: يقرب، وقوله (أكسراً): أي أيكسر كسرا؟ فإنَّ المكسور لا يمكن إعادته بخلاف المفتوح، ولأن الكسر لا يكون غالبا إلا عن إكراهٍ وغلبةٍ وخلافِ عادة". شرح النووي 174/2.

يُكسَر. وحدثتُه أنَّ ذلك البابَ رجلٌ يُقتَل أو يموت[2] حديثاً ليس بالأغاليط.[3] قال أبو خالد: فقلتُ لسعد: يا أبا مالك ما أسْوَدُ مِرْبادا؟ قال: شدةُ البياضِ في سَوادٍ. قال قلتُ: فما الكوزُ مُجَخِّياً؟ قال: مَنْكُوسا).[4]

فهذه الحقيقة النبوية في انتكاسِ القلبِ ـ والعياذ بالله ـ تؤكِّدُ بما لا رَيبَ فيه أنَّ الفِتَنَ إذا عُرِضَتْ على القُلوبِ المريضةِ؛ تلبَّستْ بها وأصابَتْها بما لا تكاد تُشْفَى منه؛ ولو كان ذلك في سِياقِ التزيينِ والزخرفة بالدنيا، كما قال عزَّ وجلَّ: {**ونَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخيرِ فِتْنَة**} (**الأنبياء: 35**). قال ابنُ الأثير رحمه الله: "في حديث حذيفة (تُعرَضُ الفِتنُ على القلوبِ عَرْضَ الحصير) أي تُحِيطُ بالقلوبِ، يُقال: حَصَرَ به القوم: أي أطافُوا، وقيل: هو عِرقٌ يَمْتدُّ مُعْترِضاً على جَنْبِ الدابةِ إلى ناحِيةِ بَطْنِها؛ فشبَّهَ الفِتنَ بذلك،

---

1 قال النووي: "قوله (لا أبا لك) قال صاحب التحرير: هذه كلمة تذكرها العرب للحث على الشيء، ومعناها أن الانسان إذا كان له أبٌ وحزبه أمرٌ ووقع في شدةٍ عاونه أبوه ورفع عنه بعض الكل؛ فلا يحتاج من الجد والاهتمام إلى ما يحتاج إليه حالةَ الانفراد وعدم الأب المعاون؛ فإذا قيل (لا أبا لك) فمعناه: جدَّ في هذا الأمر وشَمِّرْ وتأهَّبْ تأهُّبَ مَن ليس له مُعاونٌ والله أعلم. شرح النووي 174/2.

2 قوله (وحدثته أن ذلك الباب رجلٌ يُقتَل أو يموت حديثاً ليس بالأغاليط) أما الرجل الذي يقتل فقد جاء مبينا في الصحيح أنه عمر بن الخطاب τ. وقوله (يقتل أو يموت) يحتمل أن يكون حذيفة τ سمعه من النبي ρ : هكذا على الشك والمراد به الإبهام على حذيفة وغيره، ويحتمل أن يكون حذيفة علم أنه يقتل، ولكنه كره أن يخاطب عمر τ بالقتل؛ فإن عمر τ كان يعلم أنه هو الباب كما جاء مبينا في الصحيح أن عمر كان يعلم من الباب كما يعلم ان قبل غد الليلة؛ فأتى حذيفة τ بكلام يحصل منه الغرض مع أنه ليس إخبارا لعمر بأنه يقتل". شرح النووي 174/2-175.

3 وأما قوله (حديثا ليس بالأغاليط) فهي جمع أغلوطة، وهي التي يغالط بها فمعناه: حدثته حديثا صدقا محققا ليس هو من صحف الكتابيين ولا من اجتهاد ذي رأي، بل من حديث النبي ρ. والحاصل أن الحائل بين الفتن والإسلام عمر τ وهو الباب؛ فما دام حيّاً لا تدخُل الفِتن؛ فإذا مات دخَلَتْ الفتن، وكذا كان والله أعلم". شرح النووي 175/2.

4 صحيح مسلم 129/1. حديث 144. وقد سبق تخريجه بالتفصيل في فصل (الفتنة في السنة).

وقيل هو ثَوبٌ مُزَخْرَفٌ مَنْقُوشٌ؛ إذا نُشِرَ أخذَ القلوبَ بِحُسنِ صَنعتِه، فكذلك الفِتنةُ تُزَيَّنُ وتُزَخرَفُ للناسِ، وعاقبةُ ذلك إلى غُرورٍ".[1]

قال النووي: "قال القاضي عياض: قال لي ابنُ سراج: ليس قوله (كالكُوز مُجَخِّياً) تشبيهاً لما تقدم مِن سَوادِه، بل هو وَصْفٌ آخر مِن أوْصافِه بأنه قُلِبَ ونُكِسَ؛ حتى لا يَعْلَقَ به خيرٌ ولا حِكمةٌ، ومثَّله بالكُوزِ المجخى، وبَيَّنَه بِقَولِه (لا يَعرِف مَعروفاً ولا يُنكِر مُنكَرا). قال القاضي رحمه الله: شبَّه القلبَ الذي لا يَعِي خيراً بالكُوزِ المنحرِف الذي لا يثبت الماء فيه، وقال صاحب التحرير: معنى الحديث أنَّ الرجلَ إذا تبع هواه وارتكب المعاصي؛ دخل قلبَه بكل معصيةٍ يتعاطاها ظُلمةٌ؛ وإذا صار كذلك افتُتِن وزال عنه نورُ الإسلام. والقلبُ مثلُ الكُوز؛ فإذا انْكَبَّ انْصَبَّ ما فيه، ولم يَدْخُلْه شيءٌ بعد ذلك".[2]

المَطْلَب الرابع: الفِتنةُ وضَياعُ الأمانة:

وقد ورد في كتاب (الإيمانِ) مِن صحيحِ مسلم ترجمتان وافيتان بالربطِ بين أثرِ الفِتنةِ في إضعافِ الإيمانِ وانتزاعِ الأمانةِ: باب (بيان انتزاعِ الأمانةِ من القلوبِ ورَفعِها، وأنَّ القلبَ إذا أُشْرِبَ الميل إلى الفِتنةِ وإلى صاحبِها ولم يُنْكِرْها بِقَلبِه ورَكَنَ إلى صاحبِه؛ رانَ على قلبِه وانتُزِعَ الإيمانُ منه)، وباب (رَفْعِ الأمانةِ والإيمانِ مِن بعضِ القلوبِ، وعَرْضِ الفتن على القلوب). وما أحسن ترجمة البخاري في كتاب الفتن

1 النهاية في غريب الحديث 395/1.
2 شرح النووي 173/2.

(باب إذا بقي في حُثالةٍ مِن الناس) ذكر فيه حال آخر الزمان حيث (يقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلَده! وما في قلبه مثقالُ حبّةِ خردلٍ من إيمان)!

وهذا ما نطقَ به حديثُ حذيفة τ: (حدَّثَنا رسولُ الله ρ حديثين قد رأيت أحدَهما وأنا أنتظر الآخرَ، حدثنا أنَّ الأمانةَ نزلت في جذرِ قُلوبِ الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة. ثم حَدَّثَنا عن رَفعِ الأمانة قال: ينام الرجلُ النَّومةَ؛ فتُقبَضُ الأمانةُ مِن قَلبِه؛ فيظلُّ أثَرُها مثل الوَكْت، ثم ينامُ النومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ مِن قلبِه؛ فيظلُّ أثرُها مثلَ الْمَجْل: كجَمْر دَحْرَجْتَه على رِجْلِك فنَفِطَ فتراه مُنْتَبِراً، وليس فيه شيءٌ . ثم أخَذَ حصى فدَحْرَجَه على رِجْلِه . فيُصبِح الناسُ يَتبايعون لا يكاد أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ؛ حتى يُقال: إنَّ في بني فلان رجلا أمِيناً حتى يُقال للرجلِ: ما أجْلَدَه! ما أظْرَفَه! ما أعْقَلَه! وما في قَلبِه مِثقالُ حَبةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ. ولقد أتَى عَليَّ زمانٌ، وما أُبالي أيُّكم بايعتُ لئن كان مُسلماً؛ لَيُرُدُّنَّه عَليَّ دينُه، ولئن كان نصرانيّاً أو يهوديّاً لَيَرُدَّنَّهُ عليَّ ساعِيهِ، وأما اليوم فما كنتُ لأبايِعَ مِنكم إلا فلاناً وفلاناً).[1]

قال النووي رحمه الله: "أما قولُ حذيفة τ: (حَدَّثَنا رسولُ الله ρ حديثَيْن) فمعناه: حَدَّثَنا حَدِيثَيْن في الفِتْنة... أما (الأمانة) فالظاهِرُ أنَّ المرادَ بها التكليفُ الذي كلَّفَ الله تعالى عِبادَه، والعهدُ الذي أخَذَه عليهم... وقال الحسن: هو الدِّين، والدِّينُ كُلُّه أمانةٌ. وقال أبو العالية: الأمانة: ما أُمِرُوا به وما نُهُوا عنه. وقال مُقاتل: الأمانة: الطاعة، قال الواحدي: وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين... وهي عينُ الإيمان؛ فإذا

1 صحيح مسلم 1/126-127.

اسْتَمْكَنَتْ الأمانةُ مِن قَلبِ العبدِ قام حينئذٍ بأداءِ التكاليفِ، واغتنمَ ما يَرِدُ عليه منها وَجَدَّ في إقامتِها... ومعنى الحديثِ أنَّ الأمانةَ تزولُ عن القُلوبِ شيئاً فشيئاً؛ فإذا زال أوَّلُ جُزءٍ منها؛ زال نُورُها وخَلَفَتْهُ ظُلمةٌ كالوَكْت، وهو اعتراضُ لَونٍ مُخالِفٍ لِلَّونِ الذي قَبلَه؛ فإذا زال شيءٌ آخَرُ صار كالْمَجْلِ، وهو أثَرٌ مُحْكَمٌ لا يكاد يَزُولُ إلا بعدَ مُدة. وهذه الظُّلمةُ فوق التي قبلَها، ثم شَبَّهَ زَوالَ ذلك النُّورِ بعد وُقُوعِه في القَلبِ، وخُروجَه بعد استِقرارِه فيه واعتتاب الظُّلْمةِ إياه بِجَمرٍ يُدَحْرِجُه على رِجْلِه؛ حتى يؤثر فيها، ثم يزولُ الجمرُ ويبقى التنفُّطُ. وأخْذُه الحصاةَ ودَحْرَجَتُه إياها أراد بها زِيادةَ البيان وإيضاحَ المذكور والله أعلم. وأما قول حذيفة τ: (ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيُّكم بايعتُ؛ لئن كان مُسلماً لَيَرُدُّنَّه عليَّ دِينُه، ولئن كان نصرانيّاً أو يهوديّاً لَيَرُدُّنَّه عليَّ ساعِيهِ. وأما اليومَ فما كنتُ لأُبايِعَ إلا فلاناً وفلاناً) فمعنى المبايعةِ هنا البيعُ والشراءُ المعروفان، ومُرادُه: أنِّي كنتُ أعْلَمُ أنَّ الأمانةَ لم ترتفِعْ وأنَّ في الناسِ وَفاءً بالعُهودِ؛ فكنت أُقْدِمُ على مُبايَعةِ مَن اتفَقَ غيرَ باحِثٍ عن حالِه؛ وُثُوقاً بالناسِ وأمانتِهم؛ فإنه إنْ كان مُسلماً؛ فدينُه وأمانتُه تمنعُه مِن الخيانةِ وتحمِلُه على أداءِ الأمانة، وإنْ كان كافراً فساعِيهِ . وهو الوالي عليه .كان أيضا يقوم بالأمانة في ولايته؛ فيستخرج حقي منه. وأما اليوم فقد ذهبت الأمانةُ؛ فما بقي لي وُثوقٌ بمن أبايِعُه ولا بالساعي في أدائهما الأمانة؛ فما أبايِعُ إلا فلاناً وفلاناً: يعنى أفرادا من الناس أعرِفُهم وأثِقُ بهم".[1]

قال النووي رحمه الله: قال عياض: "معنى (تعرض) أنها تلصق بعرض القلوب أي جانبها كما يلصقُ الحصيرُ بجنبِ النائمِ ويؤثر فيه شدةُ التصاقِها به... وقال

1 شرح النووي على مسلم 2/168-170.

الأستاذ أبو عبد الله بن سليمان: معناه تظهر على القلوب: أي تظهر لها فتنةٌ بعد أخرى، وقوله (كالحصير): أي كما ينسج الحصير عُوداً عُوداً وشظيةً بعد أخرى، قال القاضي: وعلى هذا يترجحُ روايةُ ضَمِّ العين،[1] وذلك أنَّ ناسِجَ الحصيرِ عند العرب كلما صنعَ عُوداً؛ أخذ آخر ونَسَجَه؛ فشبَّه عَرْضَ الفتنِ على القلوبِ واحدةً بعد أخرى بعرضِ قُضبانِ الحصيرِ على صانعِها واحداً بعد واحدٍ، قال القاضي: وهذا معنى الحديث عندي، وهو الذي يدُلُّ عليه سِياقُ لَفظِه وصِحةُ تَشبِيهِه والله أعلم".[2]

فالشهواتُ إذا تَغَلْغَلَتْ في النفوسِ؛ والشبهاتُ إذا طَغَتْ على القلوب؛ صارتا مَصْدَرَا توجِيهٍ لِسُلوكِ الإنسانِ كلِّه، والعياذ بالله. وذاك هو المقصودُ في قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً} (الفرقان: **43**)، وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} (الجاثية: **23**)! وهذا مُوافِقٌ لحديثِ حذيفة τ: (فأيُّ قَلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداءُ)، قال النووي رحمه الله: "معنى (أُشْرِبَها) دَخَلَتْ فيه دُخولا تامّاً وأُلْزِمَها وحَلَّتْ منه محَلَّ الشَّرابِ، ومنه قولُه تعالى: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} (البقرة: **93**) أي: حُبُّ العِجْل. ومنه قولُهم (ثَوبٌ مُشْرَبٌ بِحُمْرة) أي: خالطَتْه الحمرة مُخالطةً لا انفكاكَ لها. ومعنى (نُكِتَ نُكتةٌ): نُقِطَ نُقطةٌ وهي بالتاء المثناة في

1 ضم العين من كلمة (عُود).
2 شرح النووي 2/171-172.

آخره، قال ابنُ دريد وغيره: كلُّ نُقطةٍ في شيءٍ بخلافِ لَونِه فهو نَكْتٌ، ومعنى (أنْكَرَها) رَدَّها".[1]

وما أجَلَّ أنْ يَعْتَنِيَ الإسلامُ بأحْوالِ القلبِ، ويَتَتَبَّعَ معرفتَه للمعروفِ وإنكارَه للمُنْكَر؛ لأنَّ في ذلك دليلاً على استقامةِ مَوازينِ الخير في القُلوب؛ ومِن ثَمَّ جاء في حديثِ إنكارِ المنكَرِ: (مَن رأى مِنكم مُنكَراً؛ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه، فإنْ لم يَستَطِعْ فبِلسانِه، فإنْ لم يستطِعْ فبِقلبِه؛ وذلك أضْعَفُ الإيمان)،[2] وفي رواية: (فمَن جاهدَهم بِيدِه فهو مُؤمنٌ، ومَن جاهَدَهم بلِسانِه فهو مُؤمنٌ، ومَن جاهَدَهم بِقلبِه فهو مُؤمنٌ؛ وليس وراءَ ذلك مِن إيمانٍ حبةُ خَردل).[3] وفي رواية: (فمَن كَرِهَ؛ فقد برىء، ومن أنكرَ؛ فقد سَلِم؛ ولكنْ مَن رَضِيَ وتابع).[4] قال النووي: "معناه: مَن كَرِهَ بِقَلبِه ولم يَسْتَطعْ إنكاراً بيدٍ ولا لِسانٍ؛ فقد بَرِىء مِن الإثم وأدَّى وَظِيفتَه. ومَن أنْكرَ بِحَسَبِ طاقتِه فقد سَلِمَ مِن هذه المعصية، ومَن رَضِيَ بِفِعْلِهم وتابَعَهم؛ فهو العاصي".[5] فقد اعتبرَ رضا القلبِ بالمنكرِ منكَراً ومتابعتَه معصيةً؛ لأنَّ ذلك علامةٌ على اخْتِلالِ الموازينِ وانحرافِ القِيَم!

ورَحِمَ الله صاحِبَ الظلالِ حيث قال: "الذين يُفْسِدُون أشْنعَ الفَساد، ويقولون: إنهم مُصْلِحون كثيرون جدّاً في كلِّ زمانٍ؛ يقولونها لأنَّ الموازينَ مُخْتَلةٌ في أيديهم. ومتى اختلَّ ميزانُ الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائرُ الموازين والقيم؛

1 شرح النووي 172/2.
2 رواه مسلم عن أبي سعيدτ.
3 رواه مسلم عن ابن مسعودτ.
4 رواه مسلم عن حذيفة τ.
5 رياض الصالحين للنووي ص 126. المكتب الإسلامي بيروت، ط 1418 هـ.

والـذين لا يُخْلِصُـون سَـرِيرتَهم للهِ يَتعـذَّرُ أنْ يَشـعُروا بِفَسـادِ أعْمـالِهم؛ لأنَّ مِيـزانَ الخـيرِ والشرِّ والصَّلاحِ والفسادِ في نُفوسِهم يَتَأرْجَحُ مع الأهواءِ الذاتية ولا يثُوب إلى قاعِدةٍ ربَّانية".[1]

وإنْ تَعْجَبْ فعَجَبٌ هذا القاموسُ الوَعِرُ المتدفِّقُ مِن هذه الألفاظِ الصعبة التي يستعملها حذيفةτ في التعبيرِ عن خطورةِ الفتنةِ وشِدَّةِ تأثيرِها في القلوب؛ (فيظلُّ أثرُها مثل الوَكْت)، (مثلَ المجل)، (كجَمْر دَحْرَجْتَه على رِجْلِك فنَفِطَ فتراه مُنْتَبِراً)، (على أبيضَ مثل الصَّفَا)، (والآخر أسْود مِرْباداً كالكُوزِ مُجَخِّياً)؛ فكأنَّ في قاموسِ الفتنةِ دلالةً بِحَرَسِ الكَلِماتِ وصُعوبةِ المفرداتِ على العلاقةِ النفسيةِ بين وُعُورةِ الألفاظِ والمباني وخُطورةِ ما تشتمل عليه مِن المقاصدِ والمعاني.[2]

المطْلَب الخامس: غُربةُ الإيمانِ في آخرِ الزمان:

روى مسلم رحمه الله في كتاب (الإيمان) باب (بيان أنَّ الإسلام بدأ غريباً[3] وسيعود غريبا، وأنه يأْرِزُ بين المسجِدَيْن) عن أبي هريرة τ قال: قال رسولُ الله ρ:

---

1 في ظلال القرآن لسيد قطب 44/1.

2 يعزو بعضُ الأدباء وُعُورةَ بعضِ الألفاظِ وغرابتَها؛ إلى مسائل نفسيةٍ؛ تتعلق بالمعاني، كما ذكر الأدباءُ مثلَ ذلك في لاميةِ الشَّنْفَرَى، حيث يسهل شعرُه عند ذكر من يحب ويألف من الذئاب والحيوان، ويصير حُوشِيّاً =غريباً إذا تعلق بذكر من يكره من الأغنياء. ولسيد قطب رحمه الله عِنايةٌ خاصةٌ وتوفيقٌ عظيمٌ في تتبع الدلالات التعبيرية لجرسِ الكلمات القرآنيةِ في كتابيه البديعين: (التصوير الفني في القرآن)، و(في ظلال القرآن).

3 قال النووي: "قوله صلى الله عه وسلم: (بدأ الإسلام غريبا) كذا ضبطناه (بدأ) بالهمز من الابتداء، و(طوبى) فُعْلَى مِن الطِّيب، قاله الفراء قال: وإنما جاءت الواو لِضَمةِ الطاء، قال: وفيها لغتان تقول العرب: طُوباك وطُوبَى لك، وأما معنى (طُوبَى) فاختلفَ المفسِّرون في معنى قوله تعالى (طُوبَى لهم وحُسْنُ مآب) فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه: فرح وقرة عين، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال قتادة: حسنى لهم، وعن قتادة أيضا: معناه أصابوا خيرا، وقال ابراهيم: خير لهم وكرامة، وقال ابن عجلان: دوام الخير، وقيل: الجنة، وقيل: شجرة في الجنة. وكل هذه الأقوال محتملةٌ في الحديث والله أعلم". شرح النووي 176/2.

(بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً؛ فطُوبَى للغرباء).[1] ولا شك أنَّ هذه الغُربةَ المذكورةَ في حديثِ أبي هريرة τ هي غُربةُ تعاليمِ الإسلامِ وأهلِه في زمانِ الجاهلية؛ !"والجاهليّة ليستْ فترةً معيَّنةً من الزمان إنما هي حالةٌ اجتماعيّةٌ معيَّنةٌ، ذاتُ تصوُّراتٍ معيَّنةٍ للحياة، ويُمكن أن تُوجد هذه الحالة وأن يُوجد هذا التصوُّر في أيّ زمانٍ وفي أيّ مكان؛ فيكون دليلاً على الجاهليّة حيث كان!"[2] ومما يُفسِّر ذلك قول أبي هريرة في الحديث الآخر: (وعُدْتُمْ مِن حيثُ بدأتم)![3] وما ثبت في أحاديث الفتن مِن عَودةِ بعض العرب إلى الشرك وعبادة الأوثان. والعياذ بالله. قال النووي رحمه الله: "فيه قوله ρ: (بدأ الاسلامُ غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً؛ فطُوبَى للغرباء، وهو يأرِز[4] بين المسجدين كما تأرِز الحيةُ في جُحْرها) وفي الرواية الأخرى: (إنَّ الإيمان لَيَأْرِز إلى المدينةِ كما تأرِز الحيةُ إلى جُحْرِها). وأما معنى الحديث: فقال القاضي عياض رحمه الله: في قوله (غريبا) روى ابن أبي أويس عن مالك رحمه الله أن معناه في المدينة وأن الاسلام بدأ بها غريبا وسيعود إليها، قال القاضي: وظاهر الحديث العموم وأن الاسلام بدأ في آحاد من الناس وقلة، ثم انتشر وظهر ثم سيلحقه النقص والإخلال؛

---

1 صحيح مسلم 130/1. حديث 145.

2 في ظلال القرآن. لسيّد قطب. 2861/22. دار الشروق. ط30. 1422 هـ.

3 رواه مسلم، وانظر جمع النووي بينه وبين حديث الغربة في الدين. شرح مسلم 21/18. وسيأتي في المبحث السابع من هذا الفصل: (أثر ضعفِ الإيمان في الوقوعِ في الفتنة).

4 قال النووي: "قوله (وهو يَأْرِز) بياء مُثَناةٍ مِن تحت بعدها همزة ثم راء مكسورة ثم زاي معجمة: هذا هو المشهورُ، وحَكاه صاحبُ المطالع مطالع الأنوار عن أكثرِ الرواة، قال: وقال أبو الحسين بن سراج (ليأرز) بضم الراء، وحكى القابسي بفتح الراء، ومعناه: ينضم ويجتمع هذا هو المشهور عند أهل اللغة والغريب. وقيل في معناه غير هذا مما لا يظهر. وقوله ρ: (بين المسجدين) أي مَسْجِدَيْ مكة والمدينة". شرح النووي 177/2.

حتى لا يبقى إلا في آحادٍ وقِلةٍ أيضا كما بدأ. وجاء في الحديث تفسيرُ الغرباء، وهم النُّزَّاعُ مِن القبائل، قال الهروي: أراد بذلك المهاجرين الذين هجروا أوطانهم إلى الله تعالى، قال القاضي: وقوله ρ: (وهو يأْرِزُ إلى المدينة) معناه أنَّ الإيمانَ أولا وآخراً بهذه الصفة؛ لأنه في أول الإسلام كان كلُّ مَن خلصَ إيمانُه وصحَّ إسلامُه أتى المدينة؛ إما مُهاجراً مُستوطِناً وإما مُتشوقاً إلى رؤيةِ رسولِ الله ρ ومُتعلِّماً منه ومُتقرباً، ثم بعدَه هكذا في زمنِ الخلفاء كذلك ولأخذ سيرةِ العدلِ منهم والاقتداءِ بجمهورِ الصحابةِ رضوان الله عليهم فيها، ثم مَن بعدَهم مِن العلماءِ الذين كانوا سُرُجَ الوقتِ وأئمةَ الهدى؛ لأخذِ السُّنَن المنتشِرة بها عنهم؛ فكان كلّ ثابتِ الإيمانِ مُنشرحُ الصدرِ به يَرْحَلُ إليها، ثم بعدَ ذلك في كلِّ وَقتٍ إلى زَمانِنا لزيارةِ قبرِ النبي ρ والتبرك بمشاهدِه وآثارِه وآثارِ أصحابِه الكرام؛ فلا يأتِيها إلا مؤمنٌ".[1]

1 شرح النووي 177/2.

المَطْلَب السادس: مَخافةُ المؤمنِ مِن شرّ الفِتَن:

وقد تَـرْجَمَ الإمـامُ البخـاريُّ في كتـاب (الإيمـان) ترجمـةً طويلـةً مـا أحْسَـنَها وأكْمَلَها: "باب خوفِ المؤمن مِن أنْ يَحْبَطَ عَمَلُه وهو لا يَشعُر. وقال إبراهيم التيمي: ما عَرَضْتُ قولي على عَملِي إلا خَشِيتُ أنْ أكونَ مُكذَّباً. وقال ابنُ أبي مُلَيْكة: أدركتُ ثلاثين مِن أصحاب النبيِّ ρ كلهم يخاف النفاقَ على نَفسِه، ما منهم أحدٌ يقول: إنه على إيمانِ جِبريل وميكائيل. ويُذكَر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمنٌ وما أمِنَه إلا مُنافِقٌ. وما يَحْذَرُ مِن الإصرارِ على النفاقِ والعِصيانِ مِنْ غَيرِ تَوبةٍ؛ لِقولِ الله تعالى: {وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران: 135)".

وحُـقَّ للمُـؤمنِ الخـوفُ مِـن أنْ يحبطَ عملُـه، ويَخشـى زوالَ النِّعمـة وتَحَـوُّلَ العافية؛ فقد روى مسلم عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال: (كان مِن دُعـاء رسـولِ اللهρ: اللهـم إني أعُـوذُ بـك مِـن زَوالِ نِعمتِك وتَحَـوُّلِ عافِيتِك وفُجـاءةِ سَـخَطِك).[1] وقد روى أنس بن مالكτ أنه قال: لما نزلَتْ هذه الآيةُ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} (الحجرات: 2) جلسَ ثابتُ بن قيس في بيتِه، وقال: أنا مِن أهل النار. واحتبس عن النبي ρ فسأل النبي ρ سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو ما شأن ثابت أشتكى؟ قال سعد: إنه لجاري وما علمتُ له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قولَ رسولِ الله ρ فقال ثابت: أُنْزِلَتْ هذه الآيةُ، ولقد عَلِمْتم

1 صحيح مسلم 2097/4.

أني مِن أرْفَعِكم صَوتا[1] على رسولِ الله ρ؛ فأنا مِن أهلِ النار. فذَكَرَ ذلك سعدٌ للنبي ρ فقال رسول الله ρ: بل هو من أهلِ الجنة).[2]

إنه ليس شيءٌ أضَرَّ علينا مِن استهانتِنا بالذنوبِ والمعاصي، وغَفْلَتِنا عن مُحاسبةِ أنفُسِنا، وعَدمِ شُعورِنا بِفَداحةِ ما فَقَدْناه؛ لِضَعْفِ إيمانِنا؛ وإنما نُحِسُّ بألمِ الذُّنوبِ على قَدرِ الإيمانِ؛ (وما لجرحٍ بِميِّتٍ إيلامُ!) بالإضافةِ إلى عَدمِ عِنايتِنا بأمراضِ القلوبِ وشدةِ جَهلِنا بأدواءِ النُّفوس. ورحم الله مالك بن دينار فقد قال لما حَضَرَه الموتُ: "لولا أني أكره أنْ أصْنعَ ما لم يَصْنَعْهُ أحدٌ كان قبلي لأوْصَيْتُ أهلي إذا أنا مِتُّ أن يُقيِّدُوني ويَجمَعوا يَديَّ إلى عُنقي؛ فينطلقوا بي على تلك الحالة؛ حتى أُدفَنَ كما يُصنَع بالعبدِ الآبِق. وفي رواية: "فإذا سألني ربي فقال: قلتُ: أيْ رب لم أرْضَ نفسي طرفةَ عَينٍ قط".[3]

وقال عونُ بن عمارة: "سمعتُ هشاماً الدستوائي يقول: واللهِ ما أستطيعُ أن أقولَ: إني ذهبتُ يوماً قط أطلبُ الحديثَ أُريد به وجهَ الله عز وجل". قال الإمام الذهبي رحمه الله مُعلِّقاً على قول هشام الدستوائي: "واللهِ ولا أنا؛ فقد كان السلف يطلبون العلمَ لله؛ فنبلوا وصاروا أئمةً يُقتدى بهم! وطلبَه قومٌ منهم أولاً لا للهِ وحصَّلوه ثم استفاقوا وحاسَبوا أنفسَهم؛ فجرَّهم العلمُ إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبْنا هذا العلمَ وما لنا فيه كبيرُ نيةٍ ثم رزقَ اللهُ النيةَ بعدُ، وبعضُهم يقول: طلبْنا هذا العلمَ لغير الله فأبى أن يكونَ إلا لله. فهذا أيضاً حسنٌ، ثم نشروه

1 وثابت بن قيس بن شماس هو خطيب الأنصار τ.
2 صحيح مسلم 110/1. حديث 119.
3 الثبات عند الممات ص147.

بنيةٍ صالحة. وقومٌ طلبوه بنيةٍ فاسدةٍ لأجل الدنيا، وليُثنَى عليهم؛ فلهم ما نوَوا، قال عليه السلام: (مَن غزا ينوي عقالاً؛ فله ما نوى).[1] وترى هذا الضربَ لم يستضيئوا بنور العلمِ ولا لهم وقعٌ في النفوس، ولا لعلمِهم كبيرُ نتيجةٍ من العمل؛ وإنما العالمُ مَن يخشى اللهَ تعالى، وقومٌ نالوا العلمَ ووَلُوا به المناصب؛ فظلموا وتركوا التقيُّدَ بالعلم وركبوا الكبائرَ والفواحشَ؛ فتباً لهم فما هؤلاء بعلماء! وبعضُهم لم يتقِ الله في علمِه، بل ركبَ الحِيَلَ وأفتى بالرُّخَص وروى الشاذَّ من الأخبار، وبعضُهم اجترأ على الله ووضعَ الأحاديثَ فهتكه الله وذهبَ علمُه وصار زادَه إلى النار".[2]

إنَّ الجاهِلَ فَحَسْبُ هو الذي يُحْسِنُ الظَّنَّ بِنَفسِه، ويَحْسَب أنه على شيء، ويطمعُ أن يُحْمَد بما لم يَفعَلْ؛ ولذلك يأمَن مكر الله، ولا يتوقع حلولَ العذاب؛ وهذا مِن فَرطِ الجهالة؛ ولذلك قال عادٌ لِقَومِه: {وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} (الأحقاف: **23**، **24**). وقد كان النبي ρ يخاف أن تأتيَ الريح بالعذاب؛ وهو أشرفُ الخلقِ والرحمةُ المهداة للعالمين، والذي قال فيه ربُّ العالمين: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} (الأنفال: **33**).

فهذا عينُ الفقهِ في الدين {فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} (الأعراف: **99**)؛ ذلك أنَّ الخوفَ يَغلِب في قَلبِ المؤمنِ؛ حذراً مِن سُوءِ العاقبة؛ {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا

1 رواه أحمد والدارمي والنسائي.
2 سير أعلام النبلاء، للذهبي 152/7، مؤسسة الرسالة بيروت، ط9، 1413 هـ.

يَحْتَسِبُونَ} (الزمر: **47**). ولله در البخاري حين ترجَمَ في كتابِ (الإيمان) ترجمتَه البديعة (باب من الدين الفرار من الفتن).[1] فالعاقلُ يُحاسِب نَفسَه، ويَتَّهم عِلْمَه وعَمَلَه، ويخشى عاقبةَ ذنبِه؛ كما قال الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} (محمد: **28**، **29**) وقال عز وجل: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} (العنكبوت: **4**) وقال سبحانه: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} (الجاثية: **21**).

وقد ذَكَرَ ابنُ الجوزي في ترجمة (حبيب الفارسي) من (المنتظم) عن عبد الواحد بن زيد أنَّ حبيباً أبا محمد جزع جزعاً شديداً عند الموت فجعل يقول بالفارسية: أُرِيد أن أسافِرَ سفراً ما سافرتُه قط! أُرِيد أن أسلكَ طريقاً ما سلكتُه قط! أُرِيد أن أدخُلَ تحت التراب؛ فأبقى تحته إلى يوم القيامة، ثم أُوقَفُ بين يَدَي الله فأخاف أن يقولَ لي: حبيبُ هاتِ تَسبيحةً واحِدةً سَبَّحْتَنِي في ستين سنةً لم يَظفَرْ بك الشيطانُ فيها. فماذا أقول وليس لي حيلة؟ أقول: يا رب هو ذا قد أتيتُك مَقبوضَ اليدين إلى عُنقي. قال عبد الواحد: هذا عَبَدَ الله ستينَ سنةً مُشتغلا به ولم يَشتَغِلْ من الدنيا بشيء قط فأي شيء حالنا؟ واغوثاه بالله).[2]

1 فتح الباري 69/1.
2 المنتظم لابن الجوزي 197/7-198.

ورَحِمَ الله أبا حمزة مجمع بن سمعان[1] فقد قال أبو حاتم الرازي: دعا مجمع ربَّه عزَّ وجلَّ أن يُمِيتَه قبلَ الفِتنة؛ فمات مِن لَيلتِه، وخرج زيد بن علي من الغد).[2]

1 كان سفيان الثوري يرى لمجمع أمراً عظيماً، حتى قال: ليس شيءٌ من عملي أرجو ألا يَشُوبَه شيءٌ كحُبِّي لمجمع التيمي. وقال سفيان: يروى عن أبي حيان التيمي أنه قال: وحلف ما من عمله شيء أوثق في نفسه من حُبِّه مِن مجمع التيمي.

2 المنتظم 197/7.

المَطْلَب السابع: أثَرُ ضَعفِ الإيمانِ في الوُقوعِ في الفِتْنة:

لا ريبَ أنَّ ضَعفَ الإيمانِ يُورِث الخذلان، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} (محمد: 16، 17) فالطَّبعُ على القُلوبِ كان جزاءً وِفاقاً لاتباعِ الهوى، كما أنَّ الزيادة في الهدى والتوفيق ثمرةٌ لاتباع الهدى، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (محمد: 7). وللإيمانِ آياتٌ في تَثبيتِ أصحابِه كما قال الله عزَّ وجَلَّ: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} (آل عمران: 173)، وقال تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً} (الأحزاب: 22).

إنَّ الفِتنَ تُسبِّب نَكْسةً في عالمِ القِيَم والمبادىء؛ (فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء)؛ حيث تعودُ بالإنسانِ أدراجَه إلى حمأة الجاهلية القذرة، فالوقوعُ في الفتن يُمثِّل رُجوعاً مَقِيتاً إلى دنيا الجاهلية، كما روى مسلم عن أبي هريرةτ قال: (وعُدْتُمْ مِن حيث بدأتم، وعُدْتُمْ مِن حيث بدأتم، وعُدْتُمْ مِن حيثُ بدأتم؛ شَهِد على ذلك لحمُ أبي هريرة ودمُه)! قال النووي: "أما قوله ρ: (وعُدْتُمْ من حيث بدأتم) فهو بمعنى الحديث الآخر (بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ).[1]

وإنَّ المرءَ في عَصرِنا لَيَمتلىء قلبُه عجباً مِن قَولِ حذيفة τ في خير قرون هذه الأمة: (ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيكم بايعتُ؛ لئن كان مُسلما لَيَرُدُّنَّه عليَّ دينه

1 شرح مسلم 21/18.

ولئن كان نصرانيا أو يهوديا لَيَرُدُّنَّه على ساعيه. وأما اليومَ فما كنتُ لأبايعَ منكم إلا فلانا وفلانا).[1] ومثله حديث الزهري عن أنس τ الذي رواه البخاري في (مواقيت الصلاة) باب (تضييع الصلاة عن وقتها) قال: (دَخلتُ على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلتُ له: ما يُبْكِيك؟ فقال: لا أعرفُ شيئاً مما أدركتُ إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاةُ قد ضُيِّعَتْ).[2]

فيعلم عظمةَ إيمانِ الصحابةِ وصِدقَ نَقائهم وشِدةَ حَساسِيَتِهم مِن التَّفريطِ في جَنْبِ الله؛ بخلافِ مَنْ جاء بَعدَهم! وهذا المعنى يُقَرِّب لنا الوَعيَ بحديثِ الشيخين عن أبي هريرة أنَّ النبي ρ قال: (لا تسبُّوا أصحابي؛ فإنّ أحدَكم لَوْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهباً؛ لم يَبْلُغْ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفَه)! لِبُلُوغِهم الغايةَ التي لا تُدْرَك في الصِّدقِ الذي لا يُخالِطُه كَذبٌ، والصَّفاءِ الذي لا يُخالِطُه كَدَرٌ والإخْلاصِ الذي لا يَشُوبُه رِياءٌ ψ أجمعين.[3]

المبحث الثامن: الفِتْنَةُ في عَدَمِ الاعتِصامِ بالكتابِ والسُّنة:

لا شك أنَّ الاعتِصامَ بالكتابِ والسُّنةِ دَيْدَنُ المسلِمِ وشأنُه في كلِّ أمْرٍ مِن أمُوره؛ لأنه لا يحيى إلا مِن خِلالِ تعالِيمِ دِينِه. فهو يَعتصِمُ بحبلِ الله وسُنةِ رسولِ الله ρ، ويَستَمِدُّ منهما الهدى والنور في حياتِه كلِّها. وإنك إذا اعتصمتَ بالقرآنِ والسنة واتبعتَ سيرةَ سلفِ الأمة؛ فقد عُصِمْتَ من الفِتنة؛ فلا تخاف دَرَكاً ولا تخشى!

---

1 صحيح مسلم 1/126-127. حديث 143.

2 فتح الباري 2/195.

3 قال النووي: "فَضِيلةُ الصُّحْبةِ ولو لَحْظةً لا يُوازِيها عَمَلٌ، ولا تُنالُ دَرَجَتُها بِشَيءٍ"! شرح النووي على مسلم 16/93.

وعلى قَدْرِ ابتلاءِ العبدِ بالجهلِ والهوى؛ يكون ابتعادُهُ عن الكتابِ والسُّنةِ والاهتداءِ بهما؛ قال الله عزَّ وجلَّ: {**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**} (النور: **63**) قال ابنُ قدامة: "حَذَّرَ الفِتنةَ والعذابَ الأليمَ في مُخالفةِ الأمرِ؛ فلولا أنه مُقتَضٍ للوُجُوبِ ما لَحِقَه ذلك".[1] "وما استمْسَكَ المسلمون في تاريخِهم كلِّه بِعُروةِ الله وحدَها وحققوا منهجَ الله في حياتِهم كلها؛ إلا عَزُّوا وانتصروا ووقاهم اللهُ كيدَ أعدائهم، وكانت كلمتُهم هي العليا".[2]

ولذلك تجيء المقابَلةُ بين اتباعِ الشريعةِ واتباعِ أهواءِ الجهَلة، كما قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: {**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**} (**الجاثية**: **18**). ويجيء التأكيدُ على ارتباطِ الاعتِصامِ بالكتابِ والسُّنةِ بالهِداية والصلاحِ؛ {**وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**} (آل عمران: **101**)، {**وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**} (الأعراف: **170**) وأنَّ العبدَ كلما أعْرَضَ عَن ذِكْرِ الرحمنِ؛ وَقَعَ في ولايةِ الشيطان {**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**} (**الزخرف**: **36**، **37**)، وكلُّ ذلك راجِعٌ إلى التوفيقِ والخذلانِ؛ عدلاً من الله ورحمةً. فولايةُ الله عزَّ وجلَّ راجعةٌ إلى المتقين {**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**} (**الجاثية**: **19**). والخذلان يعودُ على الظالمين {**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ**} (**محمد**: **11**). قال ابن الجوزي رحمه الله في تفسيرِ قولِه تعالى: {**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**} (النور: **63**): "في الفتنةِ هاهنا ثلاثةُ أقوالٍ: أحدها: الضلالة،

1 روضة الناظر 194/1.

2 في ظلال القرآن لسيد قطب 453/4. دار الشروق، الطبعة الشرعية الثلاثون. 1422 هـ.

قاله ابن عباس، والثاني: بلاءٌ في الدنيا، قاله مجاهد، والثالث: كفرٌ، قاله السدي ومُقاتل".[1]

ولله دَرُّ ابنِ القيم حيث قال: "في القلبِ شَعَثٌ لا يلُمُّه إلا الإقبالُ على الله، وفيه وِحْشةٌ لا يُزِيلُها إلا الأنسُ به في خلوته، وفيه حُزنٌ لا يُذْهِبه إلا السُّرورُ بمعرفتِه وصِدقِ مُعامَلتِه، وفيه قلقٌ لا يُسكِّنه إلا الاجتماعُ عليه والفِرارُ منه إليه، وفيه نيرانُ حَسراتٍ لا يطفئها إلا الرِّضى بأمرِه ونَهيِه وقضائه، ومُعانقةُ الصبرِ على ذلك إلى وقتِ لقائه، وفيه طَلَبٌ شديدٌ لا يقفُ دون أنْ يكون هو وحدَه مَطلوبَه، وفيه فاقةٌ لا يَسُدُّها إلا مَحبَّتُه والإنابةُ إليه ودوامُ ذِكْرِه، وصِدقُ الإخلاصِ له؛ ولو أُعْطِيَ الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقةُ منه أبدا"![2]

المَطْلَب التاسع: الخِذلانُ مِن أعظمِ أسبابِ الفِتَن:

وقد صرَّحَ العلامةُ ابنُ منظور بأثَرِ الخِذلانِ في الوُقوعِ في الفِتَن، فقال رحمه الله: "خَذَلَه: تَرَكَ نُصْرَتَه وعَوْنَه... وخِذلانُ اللهِ العبدَ: أن لا يَعْصِمَه مِن الشُّبَه؛ فيقعُ فيها؛ نعوذ باللهِ من ذلك".[3] قال الله عز وجل: {**وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**} (**الأنفال: 24**)، قال الشوكاني: "أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصحَّحه من طرقٍ عن ابن عباس في قولِه:

1 زاد المسير 69/6.
2 مدارج السالكين لابن القيّم 164/3.
3 لسان العرب 202/11.

{وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} قال: يَحُولُ بين المؤمنِ وبينِ الكُفرِ ومَعاصي الله، ويَحُولُ بين الكافرِ وبين الإيمانِ وطاعةِ الله".[1]

ولا ريبَ أنَّ أعظم نَجاحٍ وفَلاحٍ لِلعَبدِ أن يَشْمَلَه توفيقُ الله عزَّ وجلَّ وتَكْتَنِفَه عِنايتُه؛ فبِحَسَبِ ذلك؛ تكون نَجاتُه مِن الفِتنةِ واعتصامُه بالكتابِ والسُّنة. وقد قال يوسف ρ في فِتنةِ الشهوات: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ} (يوسف: **33**)، قال صاحب الظلال: "وهي دَعوةُ الإنسانِ العارِفِ ببشريَّتِه الذي لا يَغْتَرُّ بعِصمتِه؛ فيريد مَزيداً مِن عِنايةِ اللهِ وحِياطَتِه؛ يُعاوِنُه على ما يَعترِضُه مِن فِتنةٍ وكَيدٍ وإغراء {فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (يوسف: **34**)".[2] وقد حكى القرطبي عن ابن العربي أنه حضر مجلسَ الإمامِ ابنِ عطاء بدارِ السلامِ[3] وهو يتكلم على براءة يوسف عليه السلام "فقام رجلٌ مِن آخرِ مجلسِه. وهو مَشْحُونٌ بالخَليقةِ مِن كلِّ طائفةٍ. فقال: يا شيخَنا، يا سيِّدَنا؛ فإذَنْ يوسفُ هَمَّ وما تَمَّ؟ قال: نعم؛ لأنَّ العِنايةَ مِنْ ثَمَّ"![4] نسأل اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ الكريمِ أنْ يجعلَنا مِن أهلِ توفيقِه وعِنايَتِه.

---

1 فتح القدير 300/2.

2 في ظلال القُرآن

3 فَرَّجَ اللهُ كُرْبَتَها، ورَدَّ غُرْبَتَها إلى بلادِ المسلمين، وعَجَّلَ تحريرَها من براثنِ الصليبيِّين؛

لهفي على دارِ السلامِ.. تحُـرَّقُ بِلَظى الصّليبِ. . فدَمْعُنا يتدفّقُ!

بَغدادُ يا بغدادُ..يا دارَ الخلافةِ والمعارفِ.. ثورُها يتألّقُ!

بالأمسِ أندلُسٌ ! وهذا المسجدُ الأقصى أسيراً..دمْعُهُ يترقرقُ!

4 قال القرطبي: "فانظرْ إلى حَلاوةِ العالِمِ والمتعلِّم! وانظرْ إلى فِطنةِ العامِّيِّ في سؤالِه وجوابِ العالِمِ في اختصارِه واستيفائه!" الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 168/9.

ورَحِمَ الله ابنَ القيِّم حيث قال: "إنَّ العارِفين كلَّهم مُجْمِعُون على أنَّ التوفيقَ: أن لا يَكِلَكَ اللهُ تعالى إلى نَفسِك، والخذلان: أن يَكِلَك الله تعالى إلى نفسِك؛ فمن أراد اللهُ به خيراً فتحَ له بابَ الذُلِّ والانكسارِ ودوامِ اللُّجوءِ إلى الله تعالى والافتقارِ إليه، ورؤيةِ عُيوبِ نَفسِهِ وجَهْلِها وعُدْوانِها، ومُشاهَدةِ فَضلِ ربِّهِ وإحْسانِهِ ورَحْمَتِهِ وجُودِهِ وبرِّهِ وغِناه وحَمْدِه. فالعارفُ سائرٌ إلى الله تعالى بين هذين الجناحَيْن؛ لا يُمكنه أن يسيرَ إلا بهما؛ فمتى فاتَه واحدٌ منهما فهو كالطيرِ الذي فقَدَ أحدَ جناحَيْه".[1]

وقد يجيء التعبيرُ عن (الخذلانِ) في القرآن الكريم بـ(التثبيط) و(الإغواء)، كما قال الله عز وجل: {**وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ**} (**التوبة: 46**). قال الشوكاني: "هو عِبارةٌ عن الخذلان أي أوْقَعَ الله في قُلوبِهم القُعودَ؛ خِذلانا لهم. ومعنى (مع القاعِدِين) أي مع أولي الضَّرر مِن العُمْيان والمرضى والنساء والصِّبْيان؛ وفيه مِن الذَّم لهم والإزراءِ عليهم والتنقُّصِ بهم ما لا يخفى".[2] وقال نوح عليه السلام لقومه: {**وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي**} (**هود: 34**) "أي إبلاغي واجتهادي في إيمانِكم" {**إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ**} (**هود: 34**). "أي يضلكم... وقيل (أن يغويكم) يهلككم؛ لأن الإضلال يؤدي إلى الهلاك".[3]

وقال ابن القيم رحمه الله: "فالعبدُ في هذه الدارِ مَفْتُونٌ بِشَهواتِه ونَفسِه الأمَّارةِ وشيطانِه المغوي المزيِّنِ وقرنائه وما يراه ويشاهِدُه مما يَعْجَزُ صَبرُه عنه، ويتفقُ مع ذلك ضَعفُ الإيمانِ واليقينِ، وضَعفُ القلبِ، ومَرارةُ الصبرِ وذوقُ حلاوةِ العاجِلِ، ومَيلُ

1 الوابل الصيِّب لابن القيم ص 14.
2 فتح القدير 366/2.
3 الجامع لأحكام القرآن 28/9.

النفسِ إلى زَهرةِ الحياةِ الدنيا، وكَوْنُ العِوَضِ مُؤجَّلا في دارٍ أخرى غير هذه الدار التي خُلِقَ فيها، وفيها نشأ؛ فهو مُكَلَّفٌ بأنْ يَترُكَ شَهْوتَه الحاضِرةَ المشاهَدةَ؛ لِغَيْبٍ طُلِبَ منه الإيمانَ به:

فَواللهِ لولا الله يُسعِدُ عَبْدَه بِتَوفِيقِه واللهُ بالعَبدِ أرْحَمُ
لما ثَبَتَ الإيمانُ يوماً بِقَلْبِهِ على هذه العِلات والأمْرُ أعْظَمُ!
ولا طاوَعَتْهُ النفسُ في تَرْكِ شهوةٍ مَخافةَ نارٍ جَمْرُها يَتَضَرَّمُ
ولا خافَ يوماً مِن مَقامِ إلَهِهِ عليهِ بِحُكْمِ القِسْطِ إذْ ليسَ يظلم".[1]

المَطْلَب العاشِر: فِتنةُ الإعْراضُ عن مَنهجِ السَّلَفِ الصالح:

لا شكَّ أنَّ التاريخَ الإسلاميَّ قديماً وحديثاً شاهِدٌ على ما تَجْنِيهِ المناهِجُ الغاليةُ في عداوةِ السلفِ الصالح على مَرْضَى القلوب؛ حتى يَرْتَكِسُوا في النفاقِ وعَداوةِ الإسلامِ وتشويهِ التاريخ الإسلامي؛ انتصاراً لأهوائهم وأحقادِهم! ولَكَ أن تتأمَّلَ ما جَنَى التعصبُ والغلوُّ وعداوةُ مَنهجِ السلف؛ على بعضِ المعادِين لأهلِ السُّنة حتى قال: "إنَّا لا نَجتَمعُ معهم. أي مع السُّنة. على إلهٍ ولا على نبيٍّ، ولا على إمامٍ؛ وذلك أنهم يقولون: إنَّ ربَّهم هو الذي كان محمدٌ نبيَّه وخليفته من بعده أبو بكر. ونحن لا

1 إغاثة اللهفان 164/2.

نقول بهذا الربِّ ولا بذلك النبيِّ؛ بل نقول: إنَّ الربَّ الذي خليفةُ نبيِّه أبو بكر ليس ربَّنا، ولا ذلك النبي نبيَّنا".[1]

فالموفَّقُ من اعْتَصَمَ بما كان عليه السلف الصالح؛ فإنهم خير القرون؛ قال ابن تيمية رحمه الله: "قال ابن مسعود رضي اله عنه: (مَن كان مِنكم مُسْتَنّاً فَلْيَسْتَنَّ بِمَن قد مات؛ فإنَّ الحيَّ لا يؤمَن عليه الفِتنةُ. أولئك أصحابُ محمد أبرُّ هذه الأمةِ قُلوباً وأعمقُها عِلماً وأقلُّها تَكلُّفاً؛ قومٌ اختارَهم الله لِصُحبةِ نبيِّه وإقامةِ دِينِه؛ فاعْرِفُوا لهم حقَّهم وتمسَّكُوا بِهَدْيِهم؛ فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم)، وقال أيضا (إنَّ الله نظرَ في قلوبِ العبادِ؛ فوجَدَ قلبَ محمدٍ خيرَ قُلوبِ العِبادِ؛ فاصطفاه لِنفسِه وابتعثَه برسالتِه، ثم نظَرَ في قلوبِ العِباد بعدَ قلبِ محمد؛ فوجَدَ قلوبَ أصحابِه خيرَ قُلوبِ العِباد بعد قَلبِه؛ فجعَلَهم وزراءَ نبيِّه يُقاتِلُون على دِينِه)، وقد ثبتَ في الصحيحين مِن غيرِ وجهٍ عن النبي ρ أنه قال (خيرُ القرونِ القرنُ الذي بُعِثتُ فيهم، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم)، وقد قال تعالى (والسابِقُون الأوَّلُون مِن المهاجرين والأنصارِ والذين اتَّبَعُوهم بإحسان)؛ فرضِيَ عن السابِقين مُطلَقاً، ورَضِيَ عمَّنْ اتَّبَعَهم بإحسان. وذلك مُتناوِلٌ لكلِّ مَن اتبعهم إلى يوم القيامة كما ذكر ذلك أهلُ العلم".[2]

قال ابنُ القيم: "فهَلْ سَمِعَ في الأوَّلين والآخِرين بمثلِ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والعشرة المشهود لهم بالجنة وسائر المهاجرين والأنصار ψ ؟ وهل سمع بقوم أتَمَّ

1 الأنوار الجزائرية لنعمة الله الجزائري 278/2، باب نور في حقيقة دين الإمامية والعلة التي من أجلها يجب الأخذ بخلافِ ما تقوله العامة. نقلا عن (الله ثم للتاريخ) للعلامة الموسوي ص85.

2 النبوات 161/1.

عُقولا وأصحَّ أذْهاناً وأكْمَلَ عِلماً ومَعرفةً وأزْكى قُلوبا مِن هؤلاء الذين قال الله فيهم: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} (النمل: **59**)؟ قال غيرُ واحدٍ من السلف: هم أصحابُ محمد ρ قال فيهم عبدُ الله بن مسعود: مَن كان مِنكم مُسْتَنّاً فَلْيَسْتَنَّ بمن قد مات؛ فإنَّ الحي لا تُؤمَن عليه الفِتنةُ؛ أولئك أصحابُ محمد أبَرُّ هذه الأمةِ قُلوباً وأعمقُها عِلْماً وأقلُّها تكلفاً قومٌ اختارَهم الله لصحبةِ نبيِّه وإقامةِ دينِه؛ فاعرِفُوا لهم حقَّهم وتَمسَّكُوا بِهَديِهم فإنهم كانوا على الهدي المستقيم؛ فهؤلاء أمراء هذا الشأن. وأما الجندُ والعساكِرُ فالتابِعون كلُّهم ثم الذين يَلُونَهم مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الله بن المبارك والليث بن سعد وإسحاق بن راهويه والإمام أحمد والشافعي... وأما عامَّتُهم فأهلُ الدِّين والصِّدقِ والوَرَعِ والزُّهدِ والعِبادةِ والإخلاصِ واجتنابِ المحارم وتَوَقِّي المآثِم".[1]

المَطْلَب الحادي عشر: فِتنةُ الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ:

لا ريبَ أنَّ صحابةَ النبي ρ خَيرُ قُرونِ هذه الأمةِ؛ لِكَوْنِهم أكثرَ الناسِ عِلْماً وعَملا وإيماناً واعتِصاماً، وأبعدَهم عن الشبهات وأرفعهم عن الشهوات؛ ولذلك بلغوا أسْمَى المنازِلِ والدَّرَجات، قال ابنُ تيمية رحمه الله: "قد ثَبَتَ عن النبي ρ مِن غيرِ وَجهٍ أنه قال (خيرُ القرونِ القرنُ الذي بُعِثْتُ فيهم، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم)؛ فكان القَرنُ الأولُ مِن كمالِ العِلمِ والإيمانِ على حالٍ لم يَصِلْ إليها القرنُ الثاني،

1 الصواعق المرسلة 3/1117-1120.

وكذلك الثالث. وكان ظُهُورُ البِدَعِ والنفاقِ؛ بِحَسَبِ البُعْدِ عن السُّنَنِ والإيمانِ، وكلما كانت البِدعةُ أشَدَّ؛ تأخَّرَ ظُهورُها، وكلما كانت أخَفَّ كانت إلى الحدوثِ أقْرَبَ".[1]

وقال ابنُ القيم رحمه الله: "إذا سَلِمَ العبدُ مِن فِتنةِ الشُّبهاتِ والشهواتِ؛ حَصَلَ له أعظمُ غايَتَيْن مَطلوبَتَيْن؛ بهما سعادتُه وفلاحُه وكمالُه: وهما الهدى والرحمة، قال تعالى عن موسى وفتاه: {فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً} (الكهف: **65**)؛ فجَمَعَ له بين الرحمةِ والعِلمِ، وذلك نظيرُ قولِ أصحابِ الكهفِ: {رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً} (الكهف: **10**)؛ فإنَّ الرُّشْدَ هو العِلمُ بما ينفعُ والعَملُ به، والرُّشد والهدى إذا أُفْرِدَ كلٌّ منهما تَضَمَّن الآخَر، وإذا قُرِنَ أحدُهما بالآخَر، فالهدى هو العِلمُ بالحق، والرُّشد هو العملُ به، وضِدُّهما الغَيُّ واتباعُ الهوى، وقد يُقابَلُ الرشدُ بالضُّر والشرِّ، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً} (الجن: **21**)، وقال مُؤمِنُو الجنِّ: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً} (الجن: **10**)، فالرُّشْدُ يُقابِل الغَيَّ كما في قوله: {وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} (الأعراف: **146**)، ويُقابَل الضُّرَّ والشَّرَّ كما تقدم؛ وذلك لأنَّ الغيَّ سببٌ لحصولِ الشر والضرر ووقوعهما بصاحبه، فالضرر والشر غايةُ الغيِّ وثَمرتُه، كما أنَّ الرحمةَ والفلاحَ غايةُ الهدى وثَمرتُه؛ فلهذا يُقابَل كلٌّ منهما بِنَقيضِه... وجمعَ سبحانه بين الهدى والفلاحِ والهدى والرحمةِ، كما يجمع بين الضلالِ والشقاءِ والضلالِ والعذابِ كقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}

1 العقيدة الأصفهانية 184/1.

(القمر: **47**)، فالضَّلالُ ضد الهدى، والسُّعُر العذاب وهو ضد الرحمة.[1] وقال {**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**} (طه: **124**)، والمقصودُ أنَّ مَن سَلِمَ مِن فِتنةِ الشُّبهاتِ والشَّهواتِ؛ جمعَ له بين الهدى والرحمةِ والهدى والفلاحِ، قال تعالى عن أوليائه {**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**} (آل عمران: 8)، وقال تعالى: {**وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**} (الأعراف: **154**)، وقال تعالى: {**هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**} (الجاثية: **20**)".[2]

1 إغاثة اللهفان 168/2.

2 إغاثة اللهفان 169/2.

المَطْلَب الثاني عشر: فِتنةُ اتِّباعِ الهَوَى:

وقد قرَّرَ القرآنُ أنَّ اتباعَ الهوى يُؤدِّي إلى الضَّلالِ والعُدْوانِ، كما قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: {وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} (الأنعام: **119**)، ذلك أن الفاسقين ليس لهم عهدٌ، كما قال تعالى: {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} (الأعراف: **102**)، قال صاحبُ الظلال رحمه الله: "هذه ثمرةُ التقلُّبِ ونَقْضِ العَهدِ واتِّباعِ الهوى. ومَن لم يُمْسِكْ نفسَه على عَهدِه مع الله مُسْتَقِيماً على طَرِيقَتِه، مُسْتَرْشِداً بِهُداه؛ فلا بُدَّ أنْ تَتَفَرَّقَ به السُّبُل، ولا بُدَّ أنْ يَنْحَرِفَ، ولا بُدَّ أنْ يَفْسُق!"[1]

وهذا شَأنُ المعرِضِين عَن أنْوارِ الوَحي؛ فهم يَغرَقُون في ظُلماتِ الجهلِ والهوى والعِياذ بالله. قال السعدي رحمه الله: "مِن العوائدِ القدريةِ والحكمة الإلهية أنّ مَنْ تركَ ما يَنْفعُه وأمْكَنَه الانتِفاعُ به فلم يَنتفعْ؛ ابتُلِيَ بالاشتِغال بما يَضُرُّه! فمن تركَ عبادةَ الرحمنِ؛ ابتُلِيَ بعبادةِ الأوثان، ومن تركَ محبةَ اللهِ وخوفَه ورجاءه؛ ابتُلِيَ بمحبةِ غيرِ اللهِ وخوفِه ورجائه، ومن لم يُنفِقْ مالَه في طاعةِ الله؛ أنفقَه في طاعةِ الشيطان،[2] ومَنْ تَركَ الذُّلَّ لربِّه؛ ابتُلِيَ بالذُّلِّ للعَبِيد، ومَن تَرَكَ الحقَّ ابتُلِيَ بالباطل".[3]

وقد رأينا كيفَ جَرَتْ الأهواءُ بِبعضِ السفهاء؛ حتى سَبُّوا صَحابةَ النبي ρ وحَكَمُوا على خيرِ قُرُونِ هذه الأمةِ بالكُفرِ والضَّلالِ! ذلك أنَّ اتباعَ الهوى يؤدِّي إلى انحرافِ المنهجِ واختلالِ المعايير والعِياذ بالله! وقد قال العلامة الموسوي في كتابِه القيِّم

1 في ظلال القرآن لسيد قطب 1342/9.
2 (فسيُنفِقُونها ثم تكون عليهم حَسْرةً ثم يُغلَبُون). الأنفال 36.
3 تيسير الكريم الرحمن ص 60.

(لله ثم للتاريخ): "لو سألْنا اليهودَ: مَن هُم أفضلُ الناسِ في مِلَّتِكم؟ لقالوا: أصحابُ موسى. ولو سألْنا النصارى: مَن هم أفضلُ الناسِ في أُمَّتِكم؟ لقالوا: إنَّهم حَوارِيُّو عيسى. ولو سألْنا الشيعةَ: مَن هم أسْوأُ الناسِ في نَظَرِكم وعَقِيدَتِكم؟ لقالوا: إنَّهم أصْحابُ مُحَمَّد ρ ".[1] وكأنما عَنَتْهم أُمُّنا عائشة رضي الله عنها حين قالت لعروة بن الزبير: (يا ابنَ أُختي أُمِرُوا أن يَستغفِروا لأصحابِ النبيِّ ρ؛ فسَبُّوهم)![2]

إنَّ اتباعَ الهوى مِن أعْظمِ الفتنِ؛ فهو يقود صاحبَه إلى النِّفاق: كما هو حال (الذي اسْتَوْقَدَ ناراً): "فبينما هو كذلك إذ ذهبَ اللهُ بِنُورِه, فذهبَ عنه النورُ وذهب معه السُّرورُ, وبقي في الظُّلمةِ العظيمةِ والنارِ المحرقة, فذهبَ ما فيها مِن الإشراق, وبقي ما فيها مِن الإحْراق, فبَقِيَ في ظُلماتٍ مُتعددةٍ: ظُلْمة الليل, وظُلْمة السحاب, وظُلْمة المطر, والظُّلْمة الحاصِلة بعد النُّور؛ فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون".[3]

وقد بَيَّن العلماءُ الفتنَ العظيمة التي يُسبِّبها النفاق؛ مِن الآفاتِ النفسية والأخلاقية والأمراضِ الاجتماعية. أعاذنا الله والمسلمين منها. حيث إنَّ "النفاقَ يجمع الكذبَ والجُبنَ والمكيدةَ وأفَنَ الرأي والبَلَهَ وسُوءَ السلوكِ والطمعَ وإضاعةَ العمرِ وزوالَ الثقة وعداوةَ الأصحابِ واضمحلالَ الفضيلةِ. أما الكذبُ فظاهرٌ، وأما الجُبنُ؛ فلأنه

1 لله ثم للتاريخ للسيد حسين الموسوي ص 87. دار الأمل، القاهرة، الطبعة الرابعة. وهو من أجَلِّ الكتب التي تبين حقيقة الشيعة من الداخل، ومقدار عداوتهم وحقدهم على أهلِ السنة، مع دراسةٍ نقديةٍ مقارنةٍ وتوثيق وتدقيق، جزى الله مؤلفه خيرَ ما يجزي عبادَه الصالحين ودُعاته الصادقين.

2 رواه مسلم.

3 تيسير الكريم الرحمن ص44.

لولاه لما دعاه داعٍ إلى مُخالفةِ ما يُبطِن، وأما المكيدةُ فإنه يحمل على اتقاءِ الإطلاعِ عليه بكلِّ ما يُمكن، وأما أفَنُ الرأيِ؛ فلأنَّ ذلك دليلٌ على ضعفٍ في العقل إذْ لا داعيَ إلى ذلك وأما البَلَهُ فللجهلِ بأنَّ ذلك لا يطول الاغترارُ به، وأما سوءُ السلوكِ؛ فلأنَّ طبعَ النفاقِ إخفاءُ الصفاتِ المذمومة، والصفاتُ المذمومة إذا لم تظهرْ لا يمكن للمربي ولا للصديق ولا لعمومِ الناسِ تغييرها على صاحبِها؛ فتبقى كما هي وتزيد تمكُّناً بطولِ الزمان؛ حتى تصيرَ مَلَكةً يتعذَّرُ زوالُها، وأما الطمعُ فلأنَّ غالبَ أحوالِ النفاقِ يكون للرغبة في حصولِ النفع، وأما إضاعةُ العمر فلأنَّ العقلَ ينصرف إلى ترويجِ أحوالِ النفاق وما يلزم إجراؤه مع الناسِ ونصبِ الحِيَلِ لإخفاءِ ذلك؛ وفي ذلك ما يصرف الذهنَ عن الشغل بما يُجدي، وأما زوالُ الثقة فلأنَّ الناسَ إن اطلعوا عليه ساء ظنُّهم؛ فلا يثقون بشيءٍ يقع منه ولو حقاً، وأما عداوةُ الأصحابِ فكذلك لأنه إذا علم أنَّ ذلك خُلُقٌ لصاحبِهِ خَشِيَ غدرَهُ فحذره؛ فأدى ذلك إلى عداوتِه، وأما اضمِحلالُ الفضيلة فنتيجةُ ذلك كلِّه".[1]

المَطْلَب الثالث عشر: فِتنةُ اتباعِ خُطواتِ الشيطان:

وقد حذَّر الله عزَّ وجلَّ المؤمنين مِن فِتنةِ الشيطان، كما قال الله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ} (الأعراف: **27**)، قال الشوكاني: "أي لا يُوقِعَنَّكم في الفِتْنة. فالنهيُ وإنْ كان للشيطانِ فهو في الحقيقة لبني آدم بأنْ لا يُفْتَتَنُوا بِفِتْنَتِه ويتأثروا لذلك... قوله (إنه يراكم هو وقَبِيلُه[2] مِن حيث لا تَرَوْنَهم) هذه الجملة تعليلٌ لما قبلَها

1 تفسير التحرير والتنوير 261/1.

2 (قَبِيلُه): أعوانُه مِن الشياطين، وجنوده. فتح القدير 197/2.

مع ما تتضمَّنُه مِن المبالغةِ في تَحْذِيرِهم مِنه؛ لأنَّ مَن كان بهذه المثابة يرى بني آدم مِن حيث لا يرونه؛ كان عظيمَ الكَيدِ وكان حقيقاً بأن يُحْتَرَسَ منه أبْلَغَ احْتِراسٍ ".[1]

وقال الله عزَّ وجلَّ: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} (الأعراف: **200**، **201**)، ذلك "أنَّ مَسَّ الشيطانِ يُعْمِي ويطمس ويغلق البصيرة؛ ولكن تقوى الله ومُراقبته وخَشية غَضبِه وعِقابِه! تلك الوشيجة التي تصل القلوبَ بالله وتُوقِظِها مِن الغفلةِ عن هداه؛ تُذَكِّر المتقين؛ فإذا تَذكَّروا تفتَّحَت بَصائرُهم وتكشَّفَتْ الغِشاوةُ عَن عُيونِهم؛ {فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}".[2]

المَطْلب الرابع عشر: فِتنةُ مُتابعةِ الهالِكين وعدمِ الاعتبارِ بِمَصائرِ الظالمين:

وقد حذَّرَ العلماءُ الرَّبَّانيُّون مِن شَرِّ متابعةِ الهالكين المقترفين للمعاصي، ونبَّهُوا على خُطُورةِ الذُّنوبِ وسُوءِ عاقبتِها، كيف وقد قال الله عز وجل: (فكلا أخَذْنا بِذَنبِه فمِنهم مَنْ أرْسَلْنا عليه حاصِباً ومِنهم مَن أخَذَتْه الصَّيحةُ ومِنهم مَن خَسَفْنا به الأرضَ ومِنهم مَن أغْرَقْنا وما كان الله لِيَظْلِمَهم ولكنْ كانوا أنفسَهم يَظْلِمُون).[3] وقال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} (الشورى: **30**). وقال سبحانه: {أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً} (الإسراء: **68**، **69**).

---

1 فتح القدير 197/2.
2 في ظلال القرآن 1420/9.
3 العنكبوت 40.

قال الصنعاني رحمه الله في حديث افتراقِ الأمةِ إلى نيفٍ وسبعين فرقة: "ليس ذِكْرُ العددِ في الحديثِ؛ لبيانِ كثرةِ الهالِكين، وإنما هو لِبَيانِ اتساعِ طُرقِ الضلالِ وشُعَبِها ووحدةِ طريقِ الحق، نظير ذلك ما ذكره أئمة التفسير في قوله: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام: **153**) أنه جَمَعَ السُّبُلَ المنهِيَّ عن اتباعِها؛ لبيانِ شُعَبِ طُرقِ الضلال وكثرتِها وسعتِها، وأفردَ سَبِيلَ الهدى والحقِّ؛ لِوحدتِه وعدمِ تعدُّدِه. وثانيها: أنَّ الحكمَ على تلك الفرقِ بالهلاكِ والكونِ في النار حَكَمَ عليها باعتبارِ ظاهرِ أعْمالِها وتَفريطِها، كأنه قيل: كلها هالكةٌ باعتبارِ ظاهرِ أعْمالِها مَحكومٌ عليها بالهلاكِ وكَوْنِها في النارِ، ولا يُنافِي ذلك كَوْنَها مَرْحُومةً باعْتِبارٍ آخَرَ مِن رحمةِ اللهِ لها وشَفاعةِ نبيِّها وشفاعةِ صالحيها لطالحيها".[1]

المَطْلَب الخامس عشر: فِتنةُ الذُّنوبِ والمعاصي:

وقد حَكَى القرآنُ حال الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى {ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ} (التوبة: **118**)، قال ابن حجر: "فيها عِظَمُ أمرِ المعصيةِ، وقد نَبَّهَ الحسنُ البصري على ذلك فيما أخرجَه ابنُ أبي حاتم عنه قال: يا سُبْحانَ الله! ما أكَلَ هؤلاء الثلاثةُ مالاً حَراماً ولا سَفَكُوا دماً حَراماً ولا أفْسَدُوا في الأرضِ؛ أصابَهم ما سَمِعْتُمْ وضاقَتْ عَلَيْهم الأرضُ بِما رَحُبَتْ؛ فكيفَ بِمَنْ يُواقِعُ الفَواحِشَ والكبائرِ؟! ".[2]

---

1 افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة للصنعاني ص 68-69. دار العاصمة الرياض، ط1، 1415 هـ.

2 فتح الباري 123/8. قال: "وفيها أنَّ القويَّ في الدينِ يُؤاخَذُ بِأشَدَّ مما يؤاخَذُ الضعيف في الدينِ، وجواز إخبار المرءِ عن تقصيرِه وتفريطِه وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمره تحذيرا ونصيحة".

وقد وَرَدَ في السُّنةِ الحثُّ على المبادَرةِ بالأعمالِ قبلَ تَظاهُرِ الفِتَن. وقرَّرَ العلماء أنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطاعاتِ وينقُص بالمعاصي. حتى ترجم البخاري رحمه الله في كتاب (الإيمان) ترجمتَه الوافية: "هو قولٌ وفعلٌ ويزيد وينقص، قال الله تعالى: {لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ} (الفتح: **4**)، {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} (الكهف: **13**) {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} (مريم: **76**)، {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} (محمد: **17**)، {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً} (المدثر: **31**)، {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً} (التوبة: **124**) وقوله، وقوله جلَّ ذِكْرُه: {فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً} (آل عمران: **173**)، وقوله تعالى: {وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً} (الأحزاب: **22**)".[1]

وقد روى مسلم عن أبي هريرة في باب (الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهرِ الفتن) أنَّ رسولَ الله ρ قال: (بادِرُوا بالأعْمالِ فِتَناً كَقِطَعِ الليلِ المظلِم يُصبِح الرجلُ مُؤمِناً ويُمسي كافِراً أو يُمسي مُؤمنا ويُصبِح كافِراً؛ يَبِيعُ دِينَه بِعَرَضٍ مِن الدنيا).[2] قال النووي رحمه الله: "معنى الحديث: الحثُّ على المبادرةِ إلى الأعمالِ الصالحةِ قبلَ تَعَذُّرِها والاشتغالِ عنها بما يحدثُ مِن الفتنِ الشاغِلةِ المتكاثِرةِ المتراكِمَة كتَراكُمِ ظلامِ الليلِ المظلِمِ لا المقمِر، ووَصفَ ρ نوعاً من شدائدِ تلك الفتن، وهو أنه يُمسي مؤمناً ثم يُصبح كافراً، أو عكسه شك الراوي؛ وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحدِ هذا الانقلاب".[3]

---

1 صحيح البخاري 11/1.
2 صحيح مسلم 110/1.
3 شرح النووي على مسلم 133/2.

ورَحِمَ الله السعدي ما أحْسَنَ قولَه في تفسيرِ قوله تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً} (آل عمران: 30): "أي مَسافةً بعيدةً؛ لِعِظَمِ أسَفِها وشِدَّةِ حُزْنِها؛ فلْيَحْذَر العبدُ مِن أعْمالِ السُّوء التي لا بُدَّ أن يحزن عليها أشدَّ الحزن، ولْيتركْها وقتَ الإمكانِ قبلَ أنْ يقولَ: {يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} (الزمر: 56)، {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ} (النساء: 42)، {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً} (الفرقان: 27، 28)، {حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} (الزخرف: 38)؛ فواللهِ لَتَرْكُ كلِّ شَهوةٍ ولذَّةٍ . وإنْ عَسُرَ تَرْكُها . أيسر مِن مُعاناةِ تلك الشدائدِ واحتمالِ تلك الفضائح؛ ولكنَّ العَبدَ مِن ظُلْمِه وجَهْلِه لا يَنظُرُ إلا الأمرَ الحاضِر؛ فليس له عَقلٌ كامِلٌ يَلْحَظ به عَواقِبَ الأمُور؛ فيُقْدِمُ على ما يَنْفَعُه عاجِلاً وآجِلاً، ويُحْجِمُ عَمَّا يَضُرُّه عاجِلاً وآجِلاً!"[1]

قال ابن القيم: "الشرور هي الآلام، وأسبابها فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شُرورٌ وإنْ كان لصاحبِها فيها نوعُ غَرضٍ ولذةٍ؛ لكنها شُرورٌ لأنها أسبابُ الآلامِ ومُفْضِيةٌ إليها... والمقصودُ أنَّ هذه الأسباب التي فيها لذةٌ ما: هي شرٌّ وإنْ نالتْ بها النفسُ مَسرَّةً عاجِلةً، وهي بمنزلةِ طعامٍ لذيذٍ شهيٍّ لكنه مَسمومٌ إذا تناولَه الآكِلُ لذَّ لآكلِه وطاب له مَساغُه؛ وبعد قليل يفعل به ما يفعل؛ فهكذا المعاصي والذنوبُ ولا بد؛ حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده. وهل زالَتْ عن أحَدٍ قط نِعمةٌ إلا بِشُؤمِ مَعْصيَتِه؛ فإنَّ الله إذا أنْعَمَ

1 تيسير الكريم الرحمن ص 128.

على عَبدٍ بنعمةٍ حَفِظَها عليه، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرِها عن نفسِه {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} (الرعد: **11**). ومَن تأمَّل ما قصَّ الله تعالى في كتابِه مِن أحوالِ الأُمَمِ الذين أزال نِعَمَه عنهم؛ وَجَدَ سببَ ذلك جميعَه إنما هو مُخالفةُ أمرِه وعصيانُ رسلِه. وكذلك مَنْ نظرَ في أحوالِ أهلِ عصرِه وما أزال الله عنهم مِن نِعَمِه؛ وَجَدَ ذلك كلَّه مِن سُوءِ عواقبِ الذنوب، كما قيل: إذا كنت في نعمةٍ فارْعَها؛ فإنَّ المعاصي تزيلُ النِّعَم؛ فما حُفِظَتْ نعمةُ الله بشيءٍ قط مثل طاعتِه، ولا حَصَلَتْ فيها الزيادةُ بمثلِ شُكرِه، ولا زالتْ عن العبدِ بمثل مَعصيتِه لربِّه؛ فإنها نارُ النِّعَمِ التي تعمل فيها كما تعملُ النارُ في الحطبِ اليابِس".[1]

المَطْلَب السادس عشر: مُباشَرة مَظانِّ الفِتَن:

لا شكَّ أنَّ مُباشَرةَ مكانِ الفِتَنِ يُغْرِي بالوقوعِ فيها. وهَدْيُ القرآنِ والسُّنةِ ظاهِرٌ في النهيِ عن مُجالَسةِ المبطلين، كما قال عزَّ وجل: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ} (النساء: **140**). وجاء في حديثِ الرجلِ مِن بني إسرائيل الذي قَتلَ مائةَ نفسٍ؛ (ثم سألَ عَنْ أعْلمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ عالِمٍ، فقال: إنه قتل مائة نفسٍ؛ فهل له من توبة؟ فقال: نعم؛ ومَن يَحُولُ بَيْنَه وبين التوبة؟ انْطَلِقْ إلى أرضِ كذا وكذا؛

1 بدائع الفوائد 2/431-432.

فإنَّ بها أُناساً يَعبُدون اللهَ تعالى؛ فاعْبُدِ اللهَ معهم، ولا تَرْجِعْ إلى أرْضِك؛ فإنها أرضُ سُوء".[1]

إنَّ الفِتَنَ التي يَكْتَوِي الناسُ بنارِها؛ إنما يَكتَسِبُونَها بأيدِيهم؛ بما يقترفونُه مِن ذُنوبٍ وما يُواقِعُونَه مِن الفتن؛ حتى يُحيطُوا عالمِهم ويملؤوا حياتَهم بالفساد؛ فيَسْتَنْزِلُون غَضبَ الله وسَخطَه عليهم، كما قال تعالى: {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**} (الروم: **41**). قال سيد قطب رحمه الله: "يَكشِفُ لهم عن ارتباطِ أحوالِ الحياة وأوْضاعِها بأعمالِ الناس وكَسْبِهم، وأنَّ فسادَ قلوبِ الناسِ وعَقائدِهم وأعمالِهم؛ يُوقِعُ في الأرضِ الفَسادَ، ويملؤها بَرّاً وبَحْراً بهذا الفساد، ويجعلُه مُسيطِراً على أقدارِها غالباً عليها {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**}؛ فظهورُ الفسادِ واستعلاؤه لا يتم عَبثاً ولا يقع مُصادفةً؛ إنما هو تدبيرُ الله وسُنتِه؛ {**لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا**} مِن الشرِّ والفسادِ حينما يكتوون بنارِه، ويتألمون لما يُصِيبُهم منه {**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**}؛ فيعزمون على مقاومة الفساد، ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم".[2] وقال الشيخ ابن عاشور: "ما يكسبه الناس يكون بالجوارحِ الظاهرة كلها، وبالحواس الباطنة: من العقائد الضالة والأدواء النفسية".[3] و"مراتب ظهور الفساد حاصلةٌ؛ على مقاديرِ ما كسبت أيدي الناس... وقال تعالى:

---

1 رواه البخاري ومسلم.
2 في ظلال القرآن 2773/21.
3 التحرير والتنوير 112/21.

{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} (الشورى: **30**)، وقال {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً} (الجن: **16**)".[1]

ونقل القرطبي رحمه الله عن النحاس في قولٍ له "ظهرت المعاصي من قطع السبيل والظلم؛ فهذا هو الفساد على الحقيقة... {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} لعلهم يتوبون".[2]

قال ابن القيم رحمه الله: "أما علاماتُ تعظيمِ المناهي فالحرصُ على التباعُدِ مِن مَظانِّها وأسبابِها وما يدعو إليها ومُجانبة كلِّ وسيلةٍ تُقرِّب منها كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصُّوَرُ التي تقع بها الفتنة؛ خشيةَ الافتتانِ بها، وأنْ يَدَعَ ما لا بأسَ به حذراً مما به بأسٌ، وأنْ يُجانِبَ الفُضولَ مِن المباحات؛ خشيةَ الوُقوعِ في المكروهِ ومُجانبةِ مَن يُجاهِد بارتكابِها ويُحسنها ويدعو إليها ويتهاون بها ولا يبالي ما ركب منها؛ فإنَّ مُخالَطةَ مثل هذا داعيةٌ إلى سَخطِ الله تعالى وغضبِه، ولا يُخالطه إلا مِن سقط مِن قلبِه تعظيمُ الله تعالى وحُرُماته. ومِن علاماتِ تعظيمِ النهيِ أن يغضبَ لله عزَّ وجلَّ إذا انتهكت مَحارِمُه وأن يجدَ في قلبِه حزناً وكسرة إذا عصى الله تعالى في أرضِه ولم يضلع بإقامةِ حُدودِه وأوامرِه، ولم يَستطِعْ هو أن يغير ذلك. ومِن علاماتِ تعظيمِ الأمرِ والنهيِ أنْ لا يَسترسِلَ مع الرخصةِ إلى حدٍّ يكون صاحبُه جافياً غيرَ مُستقيمٍ على المنهج الوَسَط".[3]

المَطْلَب السابع عشر: الدُّعاءُ وأثَرُه في الثَّباتِ عند الفِتَن:

---

1 المرجع السابق 112/21.

2 الجامع 41/14.

3 الوابل الصيب من الكلم الطيب ص 24. قال السعدي رحمه الله: "في تخصيص القتال (في سبيل الله) حثّ على الإخلاص، ونهيٌ عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين". تيسير الكريم الرحمن ص 3.

إنَّ دُعاءَ الله تعالى أعظمُ تَعْبِيرٍ عن الاستِعانةِ بالله عزَّ وجَلَّ ورَجائه والخوفِ منه؛ فهو {سَمِيعُ الدُّعَاء} (آل عمران: **38**) يُجِيب دَعوةَ الداعي إذا دَعاه {تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} (الأنعام: **63**) و {خَوْفاً وَطَمَعاً} (الأعراف: **56**). وقد عبَّرَ الطيِّبي عن هذا المعنى أحْسَنَ تَعْبِيرٍ، عند قولِ الله تعالى: {أَسْتَجِبْ لَكُمْ} (غافر: **60**) فقال رحمه اللهُ: "الدعاءُ هو إظهارُ غايةِ التذلُّلِ والافتقارِ إلى الله والاستكانةِ إليه؛ وما شُرِعتْ العباداتُ إلا للخُضوعِ للباري وإظهارِ الافتقارِ إليه؛ ولهذا خَتَمَ الآيةَ بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} (غافر: **60**) حيث عبَّرَ عن عَدَمِ الخضوعِ والتذلُّلِ بالاستكبارِ, ووَضَعَ (عِبادتي) موضع (دُعائي), وجَعلَ جَزاءَ ذلك الاستِكبارَ والصَّغارَ والهَوان".[1]

إنَّ المؤمنَ دائمُ الاستحضارِ لمعاني العُبوديةِ لله عَزَّ وجلَّ؛ فهو يَستَغفِرُ اللهَ ويُنيب إليه، ويتوبُ مِن ذُنوبِه؛ اقتداءً برسول الله ρ فقد قال أبو هريرة τ: سمعتُ رسولَ الله ρ يقول: (والله إنِّي لأسْتغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه في اليومِ أكثرَ مِن سَبعين مرّةً)[2] وروى البخاري عن أبي موسى τ عن النبي ρ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: (رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر؛ وأنت على كل شيء قدير).[3] وفي روايةٍ: (اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطاياي وعَمْدي).[1]

---

1 نقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري 95/11.

2 فتح الباري 101/11.

3 صحيح البخاري باب قول النبيρ (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت). حديث 6035.

وعن أبي بكر الصديق τ أنه قال لرسولِ الله ρ: (عَلِّمْني دُعاءً أدْعُو به في صلاتي. قال: قُلِ اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت؛ فاغفِرْ لي مَغفرةً مِن عندِك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم).[2] وقد روت عائشة[3] أنَّ رسول الله ρ كان يدعو بهؤلاء الدعواتِ اللهم فإني أعوذُ بك مِن فتنةِ النارِ وعذابِ النار وفتنةِ القبر وعذابِ القبرِ ومِن شرِّ فِتنةِ الغِنَى ومِن شرِّ فِتنةِ الفقرِ، وأعوذُ بك مِن شرِّ فِتنةِ المسيح الدجال؛ اللهم اغْسِلْ خَطاياي بماءِ الثلجِ والبَرَد، ونَقِّ قلبي مِن الخطايا كما نَقَّيتَ الثوبَ الأبيضَ مِن الدَّنَس، وباعِدْ بيني وبين خطاياي كما باعَدْتَ بين المشرقِ والمغربِ، اللهم فإني أعوذ بك مِن الكسلِ والهرمِ والمأثمِ والمغرمِ).[4]

وقال الحافظ ابن حجر: "وقد استُشكِلَ دعاؤه ρ بما ذكر مع أنه مَعصومٌ مَغفورٌ له ما تقدم وما تأخَّرَ؟ وأُجِيبَ بأجوبةٍ، أحدها: أنه قصد التعليم لأمته، ثانيها: أنَّ المرادَ السؤالِ منه لأُمَّتِه؛ فيكون المعنى هنا أعوذ بك لأمتي، ثالثها: سلوكُ طريقِ التواضُعِ وإظهارِ العُبوديةِ وإلزامِ خَوفِ اللهِ وإعظامِه والافتقارِ إليه وامتثالِ أمْرِه في الرغبةِ إليه، ولا يمتنع تكرارُ الطلبِ مع تحققِ الإجابة؛ لأن ذلك يحصل الحسنات

---

1 حديث 6036.

2 صحيح البخاري 286/1.حديث 799.

3 ونحوه عن زيد بن ثابت τ قال: (أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار قالوا نعوذ بالله من عذاب النار فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر قال تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن قالوا نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن قال تعوذوا بالله من فتنة الدجال قالوا نعوذ بالله من فتنة الدجال) 2199/4.

4 صحيح البخاري 2078/4. حديث 589.

ويرفع الدرجات. وفِيهِ تَحْرِيضٌ لأمَّتِه على مُلازَمةِ ذلك؛ لأنه إذا كان مَع تحقُّقِ المغفرةِ لا يترك التضرع؛ فمَنْ لم يَتَحَقَّقْ ذلك أحْرَى بالملازَمة".[1]

وقال ابن مسعود τ: (إنَّ المؤمنَ يرى ذُنوبَه كأنه قاعِدٌ تحت جَبلٍ يخافُ أن يقعَ عليه، وإنّ الفاجِرَ يرى ذُنوبَه كذُبابٍ مَرَّ على أنْفِه فقال به هكذا).[2] قال ابنُ أبي جمرة رحمه الله: "السببُ في ذلك أنّ قلبَ المؤمن مُنَوَّرٌ؛ فإذا رأى مِن نَفْسِه ما يخالِف ما يُنوَّر به قلبُه عظم الأمرُ عليه؛ والحكمةُ في التمثيلِ بالجبلِ أنَّ غَيرَه مِن المهلِكات قد يحصل التسبُّبُ إلى النجاةِ منه عادةً، بخلافِ الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادةً. وحاصله أنّ المؤمن يغلب عليه الخوف؛ لقوّة ما عنده من الإيمان؛ فلا يأمن العقوبة بسببها. وهذا شأنُ المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح، ويخشى مِن صغيرِ عملِه السيّء".[3] وقال المحب الطبري: "إنما كانت هذه صفةُ المؤمنِ؛ لِشدةِ خَوفِه مِن اللهِ ومِن عُقوبَتِه؛ لأنه على يقينٍ من الذنب, وليس على يَقينٍ من المغفرة, والفاجِرُ قليلُ المعرفةِ بالله؛ فَلِذلك قَلَّ خَوفُه واستهانَ بالمعصِية"[4]

وقال ابن القيم رحمه الله: "الشر الذي يصيب العبدُ لا يخلو من قسمين: إما ذنوبٌ وَقَعَتْ منه يُعاقَب عليها؛ فيكون وُقوعُ ذلك بِفِعْلِه وقَصدِه وسَعيِه؛ ويكونُ هذا الشرُّ هو الذنوبَ ومُوجباتِها وهو أعظمُ الشَّرَّين وأدْوَمُهما وأشَدُّهما اتصالا بصاحبِه؛

1 فتح الباري 319/2.
2 المرجع السابق 105/11.
3 المرجع السابق.
4 المرجع السابق.

وإما شرٌّ واقِعٌ به مِن غَيرِه... فتَضَمَّنَتْ هاتان السورتان الاستِعاذةَ مِن هذه الشرورِ كلِّها بأوجَزِ لفظٍ وأجْمَعِه وأدَلِّه على المرادِ وأعَمِّه استعاذةً؛ بحيث لم يَبقَ شَرٌّ مِن الشرورِ إلا دَخَلَ تحت الشرِّ المستعاذِ منه فيهما؛ فإنَّ سُورة (الفلق) تضمَّنَت الاستِعاذةَ مِن أمُورٍ أربعةٍ: أحدها: شر المخلوقات التي لها شَرٌّ عُموما، الثاني: شَرُّ الغاسِق إذا وَقَب، الثالث: شَرُّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ، الرابع: شَرُّ الحاسِدِ إذا حَسَد".[1]

وكم مِن الناسِ يُعرِضُ عن رَحمةِ ربِّه الذي وَسِعَتْ رَحْمَتُه كلَّ شيءٍ؛ ويُقْبِلُ على مَنْ ضَرُّه أقْرَبُ مِن نَفعِه؛ لَبِئسَ المولى ولَبِئسَ العَشِير؛ فأولئك الذين ظلموا أنْفُسَهم، وحَرَمُوها لذةَ الإقبالِ على اللهِ والاستسلامِ بين يديه؛ ذلك أنَّ "مُشاهَدةَ المنّةِ تُوجِب له المحبةَ والحمدَ والشكرَ لوليِّ النعم والإحسان، ومُطالعةَ عَيبِ النفسِ والعملِ تُوجِب له الذلَّ والانكسارَ والافتقارَ والتوبةَ في كلِّ وَقتٍ؛ وأن لا يرى نفسَه إلا مُفلِساً، وأقربُ بابٍ دخلَ منه العبدُ على الله تعالى هو الإفلاس؛ فلا يرى لنفسِهِ حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلّق به ولا وسيلةً منه يمنّ بها! بل يدخلُ على اللهِ تعالى مِن بابِ الافتقارِ الصِّرفِ والإفلاسِ المحضِ دُخُولَ مَن قد كَسَرَ الفَقرُ والمسكنةُ قلبَه؛ حتى وصلتْ تلك الكَسْرةُ إلى سُوَيْدائه؛ فانْصَدعَ وشَمَلَتْهُ الكسرةُ مِن كلِّ كلِّ جهاتِهِ، وشَهِدَ ضَرورتَه إلى ربِّهِ عزَّ وجلَّ، وكمالَ فاقتِهِ وفَقرِهِ إليه، وأنَّ في كلِّ ذَرَّةٍ من ذرّاتِهِ الظاهرة والباطنة فاقةً تامّةً، وضرورةً كاملةً إلى ربِّهِ تبارك وتعالى، وأنه إنْ تَخلَّى عنه طرفةَ عينٍ

1 بدائع الفوائد 431/2.

هَلَكَ وخَسِرَ خَسارةً لا تُجبَرُ؛ إلا أنْ يعودَ الله تعالى عليه ويَتَدارَكَه بِرَحمتِهِ؛ ولا طريقَ إلى الله تعالى أقْربَ مِن العُبوديّة، ولا حِجابَ أغْلظَ مِن الدعوى!".[1]

ومِن أعظمَ مَظاهرِ العُبوديّة لله عزَّ وجلَّ الدعاءُ والتضرُّعُ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، فالدعاءُ بريدُ الأبرارِ، وصِلَةُ المذنِبين بربِّهم الغفارِ الذي خلقهم ورزقهم وهداهم واجتباهم للإيمان، وغفرَ لهم الزلات، وأقال لهم العثرات؛ فالعبدُ الصالحُ يتضرّع إلى ربِّه:

أنتَ الذي صَوَّرْتَنِي وخَلَقْتَنِي وهَدَيْتَنِي لِشرائعِ الإيمانِ!
أنتَ الذي عَلَّمْتَني ورَحِمْتَني وجعلتَ صدري واعيَ القرآنِ!
أنتَ الذي أطْعَمْتَنِي وسَقَيْتَنِي مِن غيرِ كَسْبِ يَدٍ ولا دُكَّانِ!
فلكَ المحامِدُ والمدائحُ كلُّها بِخَواطري وجَوارِحي ولِساني![2]

المَطْلَب الثامن عشر: قِلةُ التقوى والوَرَع:

فالتقوى[3] تُنْجِي صاحبَها مِن الفِتَن والمصائبِ؛ فهي سفينةُ النجاةِ وشاطىءُ الأمانِ وزادُ الطريقِ؛ (فإنَّ خيرَ الزاد التقوى).[4] وقالت عائشة وهي تحكي ما كان في

---

1 الوابل الصيِّب ص 14-15.

2 مقدمة نونية القحطاني.

3 قال ابنُ كثير رحمه الله: "أصلُ التقوى: التوقِّي مما يُكرَه... وقد قيل: إن عمر بن الخطابt سأل أبي بن كعب عن التقوى؟ فقال له: أما سلكتَ طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى. قال: فما عملتَ؟ قال: شمرتُ واجتهدتُ؛ قال: فذلك التقوى! وقد أخذَ هذا المعنى ابنُ المعتز فقال:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقَى
واصْنَعْ كَماشٍ فوقَ أرضِ الشَّوكِ يَحْذَر ما يرى!
لا تحقرنَّ صغيرةً إنَّ الجبالَ مِن الحَصَى!

تفسير القرآن العظيم 1/58-59.

4 البقرة 197.

حادثة الإفك التي اتُّهِمَتْ فيها الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما فبرأت زينبُ عائشة حين سُئلَتْ عنها؛ مع أنها كانت تساميها في المنزلةِ عند رسول الله ρ قالت عائشة مُبيِّنةً أثرَ التقوى في حِفْظِ زينب عند هذه الفتنة: (فعَصَمَها اللهُ بالوَرَع).[1]

فلا خوفَ على المتقين، فالله تعالى وَلِيُّهم ومُثَبِّتُهم في الدَّارَيْن، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} (فصلت: **30، 31**). وقال سبحانه: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ} (إبراهيم: **27**). وقال عزَّ وجَلَّ: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} (يونس: **62، 63**).

إنَّ (لباس التقوى)[2] هو الذي يَقِيَ المؤمنَ مَصارِعَ السُّوءِ ومَكايِدَ الشيطان، قال الشوكاني: "المراد بلباس التقوى لباسُ الوَرعِ واتقاء مَعاصي الله وهو الورَعُ نفسُه والخشيةُ مِن الله؛ فذلك خيرُ لِباسٍ وأجملُ زينةٍ".[3] فالتقوى طُمَأنِينةٌ قلبيةٌ غامِرةٌ، وراحةٌ نفسيةٌ عامِرةٌ، وسعادةٌ رُوحِيَّةٌ، ومَنهجٌ كامِلٌ لِلعُبودِيَّة، كما قال صاحب الظلال رحمه الله: "التقوى شُعورٌ في الضَّمير، وحالةٌ في الوِجدان تنبثق منها اتجاهاتٌ وأعمال،

---

1 مسلم بشرح النووي 113/17.

2 ومثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع في كلام العرب، ومنه:

إذ المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا!

3 فتح القدير 197/2. قال: "وقيل: لباسُ التقوى الحياءُ، وقيل العمل الصالح، وقيل: هو لباس الصوف والخشن من الثياب لما فيه من التواضع لله، وقيل هو الدرع والمغفر الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله؛ والأولُ أوْلَى، وهو يصدق على كل ما فيه تقوى لله؛ فيندرج تحته جميعُ ما ذُكِرَ مِن الأقوال".

وتتوحَّدُ بها المشاعرُ الباطنة والتصرفاتُ الظاهرة، وتَصِلُ الإنسانَ بالله في سرِّه وجَهْرِه".[1]

ولك أن تتأمل حديثَ أبي نجيح العرباض بن سارية τ قال: (وَعَظَنا رسولُ الله ρ مَوعِظةً وَجِلَتْ منها القُلوبُ, وذَرَفَتْ منها العُيون, فقلنا: يا رسولَ الله كأنها مَوعظةُ مُودِّعٍ فأوْصِنا. قال: أُوصِيكم بتقوى الله عزَّ وجلَّ والسمعَ والطاعةَ وإن تأمَّرَ عليكم عَبْدٌ, فإنه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي؛ فسيرى اختلافاً كثيراً, فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الراشِدين المهديِّين, عَضُّوا عليها بالنواجِذ, وإياكم ومُحدَثات الأمور؛ فإنّ كل بدعة ضلالة).[2] فقد تضمنت الوصية النبوية المباركة الجمع بين الأمر بملازمة التقوى واتباع السنة واجتناب الأهواء.

قال سيد قطب رحمه الله: "التقوى حَساسيةٌ في الضمير، وشَفافيةٌ في الشُّعورِ، وخَشيةٌ مُستمِرةٌ، وحذرٌ دائمٌ، وتَوَقٍّ لأشواكِ الطريق، طريقِ الحياة الذي تتجاذبه أشواكُ الرغائبِ والشهوات، وأشواكُ المطامعِ والمطامحِ، وأشواكُ المخاوفِ والهواجس، وأشواكُ الرجاءِ الكاذب فيمن لا يملك نفعاً ولا ضرّاً، وعشرات غيرها من الأشواك".[3]

1 في ظلال القرآن 41/1.
2 رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
3 في ظلال القرآن 39/1.

وإنَّ مِن أعْظَمِ النِّعَمِ التي حُرِمَ منها الأشقياءُ: تقوى اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ فإنهم لا يَنتَفِعُون بالهدى والنور، قال السعدي رحمه الله:[1] "فالأشقياءُ لم يَرْفَعُوا به رأساً, ولم يَقْبَلُوا هُدى الله, فقامَتْ عليهم به الحجةُ؛ ولم يَنْتَفِعُوا به لِشَقائهم. وأما المتقون الذين أتَوْا بالسببِ الأكبرِ لحصولِ الهدايةِ وهو التقوى . التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخطَ الله وعذابه بامتثال أوامره واجتناب النواهي . فاهتدوا به, وانتفعوا غاية الانتفاع, قال الله تعالى: {**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً**} (**الأنفال: 29**) فالمتقون هم المنتَفِعُون بالآياتِ القرآنيةِ والآياتِ الكونية".[2]

قال ابنُ كثير رحمه الله: "خُصَّتْ الهدايةُ للمتقين كما قال: {**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**} (**فصلت: 44**) {**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً**} (**الإسراء: 82**) إلى غيرِ ذلك من الآيات الدالة على اختصاصِ المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسِه هدى ولكن لا ينالُه إلا الأبرارُ كما قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**} (**يونس: 57**). وقد قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن

1 في جمعِه رحمه الله بين قول الله تعالى: (هُدى للناس) لأنه في نَفسِه هُدًى لجميعِ الخلقِ, وقوله عز وجل: (هدى للمتقين) لأنهم المنتفعون به. فتلك هدايةُ بَيان، وهذه هدايةُ توفيق.

2 تيسير الكريم الرحمن ص 40.

ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ρ (هُدًى للمُتقِين) يعني نُوراً للمتقين".[1]

المَطْلَب التاسع عشر: اقتراف بعض أسباب الجاهلية:

وقد ثبتَ في الحديثِ الصحيحِ أنَّ النبيَّ ρ قال لأبي ذر τ حين سابَّ رجلاً فعيَّرَه بأُمِّه: (إنك امرؤ فيك جاهليةٌ)،[2] قال ابنُ تيمية: "وأبو ذر τ مِن أصدقِ الناس إيمانا".[3] وقد جاء في حديث أبي ذر عند مسلم أنَّ أبا ذر τ سأل النبي ρ: (على كِبَرِ سِنِّي؟ قال: نعم!). فأخلاقُ الجاهليةِ قد تطال الكبار وقد يقع فيها عند حُلُولِ الغضبِ بعضُ الأخيار! كما روى ابنُ أبي مُلَيْكة قال: (كاد الخيِّران أن يَهلَكا: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ρ حين قدم عليه رَكْبُ بني تميم، فأشار أحدُهما بالأقرعِ بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجلٍ آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خِلافي، قال: ما أردتُ خِلافَك؛ فارتفعَتْ أصواتُهما في ذلك؛ فأنزل الله {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ**} الآية (**الحجرات: 2**)، قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ρ بعد هذه الآية حتى يَسْتَفْهِمَه ولم يذكُرْ ذلك عن أبيه يعني أبا بكر.[4]

---

1 تفسير القرآن العظيم لابن كثير 58/1.

2 رواه البخاري ومسلم.

3 أمراض القلوب لابن تيمية ص 11.

4 رواه البخاري في كتاب (التفسير) باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) الآية. صحيح البخاري 1833/4، حديث 4564. وفي كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) باب (باب ما يكره من التعمق والتنازع في

المَطْلَب العشرون: فتنةُ سُوءِ الخاتمة:

لا ريبَ أنَّ الخوفَ مِن سُوءِ الخاتمة يبعثان على مُلازمةِ التقوى والاحتياطِ مِن المعاصي والحذرِ مِن أنْ يُختَمَ سجلُ العمرِ بما يُسخِط الله؛ لأنَّ (العمل بالخواتيم) كما قال النبي ρ؛ ومِن هنا قال العلامة ابن أبي جمرة: "هذه هي التي قَطَعَتْ أعناقُ الرجال مع ما هم فيه مِن حُسْنِ الحال؛ لأنهم لا يَدْرُون بماذا يُختَمُ لهم؟"[1] وقد قال عبدُ الحق في كتاب العاقبة: "إنَّ سُوءَ الخاتمةِ لا يقع لمن استقام باطِنُه وصلحَ ظاهِرُه. وإنما يقع لمن في طَوِيَّتِه فَسادٌ وارْتِيابٌ, ويَكثُر وقوعُه للمُصِرِّ على الكبائرِ والمجترىءِ على العظائم؛ فيهجم عليه الموت بغتةً, فيَصْطَلِمُه الشيطانُ عند تلك الصَّدْمة".[2] وقال ابنُ رَجَب: "إنَّ خاتمةَ السُّوءِ تكون بِسَببِ دَسِيسَةٍ باطِنةٍ لا يَطَّلِعُ عليها الناسُ: إمَّا مِن جِهَةِ عَملٍ سيِّءٍ, ونحو ذلك. فتلك الخصلةُ الخفيةُ تُوجِب سُوءَ الخاتمةِ عند الموت... وبالجملة فالخواتيمُ مِيراثُ السوابقِ, فكلُّ ذلك سَبَقَ في الكتابِ السابق".[3]

وقد روى البخاري في باب (التعوذ من عذاب القبر) عن أبي هريرة τ قال: كان رسول الله ρ يدعو (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال).[4] وعن أنس بن مالك τ في باب (التعوذ من فتنة المحيا والممات) وباب (ما يُتَعَوَّذ به من الجبن) قال: كان النبي ρ

العلم والغلو في الدين والبدع لقوله تعالى يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) 2662/6، حديث 6782.

1 نقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري 13/ 325.

2 المرجع السابق 13/ 326.

3جامع العلوم والحِكَم لابن رجب الحنبلي ص 78- 79.

4 صحيح البخاري 463/1. حديث 1311.

يقول: (اللهم إني أعُوذُ بك من العَجزِ والكسلِ والجبنِ والهرمِ، وأعوذ بك من فِتنةِ المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر).[1] وروى ابنُ حبان في صَحيحِه عن أبي هريرة قال كان رسول الله ρ يقول (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وعذاب النار ومِن شر فتنة المحيا والممات).[2]

وقد روى البخاري في كتاب (الفتن) باب (لا تقوم الساعة حتى يُغْبَطَ[3] أهلُ القُبور) عن أبي هريرة τ عن النبي ρ قال: (لا تقومُ الساعةُ حتى يَمُرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ؛ فيقول: يا ليتني مكانه).[4] قال ابنُ حجر رحمه الله: "قوله (حتى يَمُرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ، فيقول: يا ليتَنِي مكانه!) أي كنتُ ميتا. قال ابنُ بطال: غَبْطُ أهلِ القُبُور وتَمَنِّي الموتِ عند ظُهورِ الفِتَن؛ إنما هو خوفُ ذَهابِ الدِّينِ بِغَلبةِ الباطلِ وأهلِه وظهورِ المعاصي والمنكر انتهى. وليس هذا عامّاً في حقِّ كلِّ أحدٍ، وإنما هو خاصٌّ بأهلِ الخير، وأما غيرهم فقد يكون لما يقع لأحدهم من المصيبة في نفسه أو أهله أو دنياه وان لم يكن في ذلك شيء يتعلق بدينه. ويؤيده ما أخرجه في رواية أبي حازم عن أبي هريرة عند مسلم (لا تذهب الدنيا حتى يمرَّ الرجلُ على القبرِ؛ فيتمرغ عليه، ويقول: يا ليتني مكانَ صاحب هذا القبرِ؛ وليس به الدين إلا البلاء). والسبب في ذلك ما ذكر

1 صحيح البخاري 2341/5، حديث 6006، و 1039/2حديث 2668.

2 صحيح ابن حبان 297/3. حديث 1019. باب (ذكر البيان بأن مِن شَرِّ المحيا الذي يجب على المرءِ التعوُّذُ مِنه الفتنة، وكذلك الممات).

3 قال ابن التين: غبطه بالفتح يغبطه بالكسر غبطة وغبطا بالسكون. والغبطة: تمني مثل حال المغبوط مع بقاء حاله.

4 فتح الباري75/13.

في رواية أبي حازم أنه يقع البلاء والشدة حتى يكون الموتُ الذي هو أعظمُ المصائبِ أهونَ على المرء؛ فيتمنى أَهْوَنَ المصِيبَتَيْن في اعتقادِه".[1]

وقد أخرجَ الحاكم مِن طريقِ أبي سلمة τ قال: (عُدْتُ أبا هريرة فقلتُ: اللهم اشْفِ أبا هريرة، فقال: اللهم لا تَرجِعْها. إن استطعتَ يا أبا سلمة فَمُتْ؛ والذي نفسي بيدِه ليأتِيَنَّ على العلماءِ زمانٌ الموتُ أحبُّ إلى أحدِهم من الذهبِ الأحمرِ، وليأتين أحدُهم قبرَ أخيه فيقول: ليتني مكانه). وفي كتاب الفتن من رواية عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال (يوشك أن تمر الجنازة في السوق على الجماعةِ، فيراها الرجل فيهز رأسه؛ فيقول: يا ليتني مكان هذا! قلتُ: يا أبا ذر إنَّ ذلك لمن أمر عظيمٍ؟ قال: أجل).[2] وروى معمر بن راشد عن يحيى بن أبي كثير قال: دخلت على

---

1 فتح الباري75/13. قال ابن حجر: "وبهذا جزم القرطبي وذكره عياض احتمالا وأغرب بعض شراح المصابيح فقال: المراد بالدين هنا العبادة، والمعنى أنه يتمرغ على القبر ويتمنى الموت في حالة ليس المتمرغ فيها من عادته؛ وإنما الحامل عليه البلاء. وتعقبه الطيبي بأن حمل الدين على حقيقته أولى: أي ليس التمني والتمرغ لأمر أصابه من جهة الدين؛ بل من جهة الدنيا. وقال ابن عبد البر: ظن بعضهم أن هذا الحديث معارضٌ للنهيِ عن تمني الموتِ، وليس كذلك وإنما في هذا أن هذا القدر سيكون؛ لشدةٍ تنزل بالناسِ مِن فسادِ الحالِ في الدينِ أو ضَعفِه أو خوفِ ذَهابِه لا لضرر ينزل في الجسمِ كذا قال، وكأنه يريد أنَّ النهيَ عن تمني الموت هو حيث يتعلق بضررِ الجسم، وأما إذا كان لضررٍ يتعلق بالدين فلا. وقد ذكره عياض احتمالا أيضا. وقال غيره: ليس بين هذا الخبر وحديث النهي عن تمني الموت معارضة؛ لأن النهي صريحٌ؛ وهذا إنما فيه أخبارٌ عن شدةٍ ستحصل ينشأ عنها هذا التمني، وليس فيه تعرضٌ لحكمه وانما سيق للأخبار عما سيقع قلت ويمكن أخذ الحكم من الإشارة في قوله وليس به الدين إنما هو البلاء فإنه سيق مساق الذم والانكار، وفيه إيماء إلى انه لو فعل ذلك بسبب الدين؛ لكان محمودا، ويؤيده ثبوت تمني الموت عند فساد أمر الدين عن جماعة من السلف قال النووي: لا كراهة في ذلك، بل فعله خلائق من السلف: منهم عمر بن الخطاب وعيسى الغفاري وعمر بن عبد العزيز وغيرهم".

2 فتح الباري 76/13.

أبي سلمة بن عبد الرحمن وهو مريضٌ فقال: (إن استطعتَ أن تموتَ فمُتْ؛ فوالله لَيأتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ يكونُ الموتُ إلى أحدِهم أحَبَّ مِن الذهبِ).[1]

خاتمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولِ الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فقد يسَّرَ الله عزَّ وجَلَّ بِفَضلِه ومَنِّه وكَرَمِه إتْمامَ بحث (الفِتنة في القرآن والسنة).

وإنّي أُوصي كلَّ مسلمٍ وطالبِ علمٍ باتقاء الفتن؛ والتفقه في الدين؛ فإن العلم يُنجي من الفتن. وقد نصَّ العلماءُ على استحبابُ التمثُّلِ بما يُعِينُ على الكفِّ عن الفِتنة؛ لأن ذلك مَظِنةُ التذكُّرِ والاعتبارِ، كما قال تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ**} (**الأعراف: 201**). وقال البخاري رحمه الله في كتاب (الفتن): كانوا يَسْتَحِبُّون أنْ يَتمَثَّلُوا بهذه الأبياتِ عند الفِتَن:[2]

الحربُ أوَّلُ ما تكونُ فَتِيَّةً[3] تَسْعَى بِزِينَتِها لِكلِّ جَهُولِ!
حتى إذا اشْتَعَلَتْ وشَبَّ ضِرامُها[4] ولَّتْ عَجوزاً غيرَ ذاتِ حَلِيلِ[5]

1 جامع معمر بن راشد 357/11.
2 أي: عند نزولها. فتح الباري 49/13.
3 قال ابن حجر: "قوله (الحربُ أول ما تكون فَتِيَّةً): أي شابة". فتح الباري 49/13.
4 (وشَبَّ ضِرامُها) تقول: شبت الحرب إذا اتقدت، وضِرامها بكسر الضاد المعجمة أي اشتعالها.
5 قوله (ذات حليل) بحاء مهملة والمعنى أنها صارت لا يرغب أحد في تزويجها، ومنهم من قال بالخاء المعجمة

شمطاءَ[1] يُنكَر لونُها وتغيَّرَتْ مَكروهةً[2] للشمِّ والتقبيلِ![3]

ولله دَرُّ ابن حجر؛ ما أحسنَ قَوْلَه: "المرادُ بالتمَثُّلِ بهذه الأبياتِ اسْتِحْضارُ ما شاهَدُوه وسَمِعُوه مِن حالِ الفِتنةِ؛ فإنهم يَتَذَكَّرُون بإنشادِها ذلك؛ فَيَصُدُّهم عن الدُّخولِ فيها؛ حتى لا يَغْتَرُّوا بِظاهِرِ أمْرِها أوَّلاً".[4]

فالواجِبُ اتقاءُ الفِتَنِ وإدْراكُ خُطُورَتِها؛ ولكنَّ ذلك يَتوقَّفُ على عِلْمِ المرء. ولقد بَيَّنَ القرآنُ الكريمُ أنَّ خشيةَ الله عز وجلَّ خَصِيصَةُ العلماءِ الصالحين، فقال الله عزَّ وجَلَّ: {**وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**} (**فاطر**: **28**)، وقررَتْ السُّنةُ النبويةُ أنَّ خوفَ المرءِ يكون على قدرِ عِلمِه، كما قال أنس بن مالك τ: (بلَغَ رسولَ الله ρ عن أصْحابِه شيءٌ، فخطبَ، فقال: عُرِضَتْ عَليَّ الجنةُ والنارُ؛ فلم أرَ كاليومِ في الخيرِ والشَّرِّ، ولو تَعْلَمُون ما أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قليلاً ولَبَكَيْتُمْ كثيراً. قال: فما أتَى على أصْحابِ رَسولِ الله ρ يومٌ أشَدُّ منه، قال: غَطَّوا

---

1 قوله (شمطاء) بالنصب هو وصف العجوز والشمط بالشين المعجمة اختلاط الشعر الأبيض بالشعر الأسود وقال الداودي هو كناية عن كثرة الشيب وقوله ينكر لونها أي يبدل حسنها بقبح ووقع في رواية الحميدي شمطاء جزت رأسها بدل قوله ينكر لونها وكذلك أنشده السهيلي في الروض.

2 وقوله (مكروهة للشم والتقبيل) يصف فاها بالبخر؛ مبالغةً في التنفيرِ منها.

3 قال ابن حجر: "المحفوظ أن الأبيات المذكورة لعمرو بن معد يكرب الزبيدي كما جزم به أبو العباس المبرد في الكامل، وكذا رويناه في كتاب (الغرر من الأخبار) لأبي بكر محمد بن خلف القاضي المعروف بوكيع قال: حدثنا معدان بن علي حدثنا عمرو بن محمد الناقد حدثنا سفيان بن عيينة عن خلف بن حوشب قال: قال عمرو بن معد يكرب. وبذلك جزم السهيلي في (الروض)، ووقع لنا موصولا من وجه آخر وفيه زيادة رويناه في (فوائد الميمون بن حمزة المصري) عن الطحاوي فيما زاده في السنن التي رواها عن المزني عن الشافعي فقال حدثنا المزني حدثنا الحميدي عن سفيان عن خلف بن حوشب قال (قال عيسى بن مريم للحواريين: كما ترك لكم الملوك الحكمة؛ فاتركوا لهم الدنيا)، وكان خلف يقول: ينبغي للناس أن يتعلموا هذه الأبيات في الفتنة". فتح الباري 49/13.

4 فتح الباري 50/13.

رؤوسَهم ولهم خَنِينٌ، قال: فقام عمرُ، فقال: رَضِينا باللهِ ربّاً وبالإسلامِ دِيناً وبمحمدٍ نبيّاً).[1]

ورَحِمَ اللهُ البخاريَّ حيث جَعَلَ هذا الحديثَ الجليلَ ترجمةً في كتابِ (الرقاق) (باب قول النبي ρ: لو تَعْلَمُون ما أعْلَم؛ لَضِحْكْتُمْ قليلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً)، قال ابنُ حَجَر: "المرادُ بالعِلْمِ هنا: ما يَتَعَلّقُ بِعَظَمةِ اللهِ وانْتِقامِه مِمَّنْ يَعْصِيه، والأهوالِ التي تقع عند النزعِ والموتِ وفي القبرِ ويومِ القيامة"![2]

ولا يخفى أثَرُ الإعْراضِ عن بيانِ خَطَرِ الفِتَنِ في وُقُوعِ الناسِ فيها؛ وقد تقدَّمَ سؤالُ عمر τ الصحابة ψ عن الفِتنة؛ لِشِدَّةِ عِنايتِه بها، ومضى حَدِيثُ حُذَيفة τ: (وكنتُ أسألُه عن الشَّرِّ مَخافَةَ أنْ يُدْرِكَني)،[3] (وعَرَفْتُ أنَّ الخيرَ لنْ يَسْبِقَني).[4] قال ابن أبي جَمْرَة رحمه الله: "في الحديثِ حِكْمةُ الله في عِبادِه: كيفَ أقامَ كُلاًّ مِنهم فيما شاء؛ فَحَبَّبَ إلى أكثرِ الصَّحابةِ السؤالَ عن وُجُوهِ الخيرِ؛ لِيَعْمَلُوا بها ويُبَلِّغُوها غيرَهم، وحَبَّبَ لِحُذَيفة السَّؤالَ عن الشَّرِّ؛ لِيَجْتَنِبَهُ ويَكونَ سَبَباً في دَفْعِهِ عَمَّن أرادَ اللهُ له النَّجاة، وفِيه سِعَةُ صَدْرِ النَّبِيِّ ρ ومَعْرِفَتُه بِوُجُوهِ الحكَمِ كلِّها؛ حتى كان يُجِيبُ كلَّ مَن سَأَلَه بما يُناسِبُه، ويُؤخَذُ منه أنَّ كلَّ مَنْ حُبِّبَ إليه شيءٌ؛ فإنه يَفُوقُ فيه غيرَه؛ ومِن ثَمَّ

1 صحيح البخاري 1832/4. حديث 2359.
2 فتح الباري 116/13.
3 رواه البخاري ومسلم.
4 مصنف ابن أبي شيبة 35/13.

كان حُذيفة صاحِبَ السِّرِّ الذي لا يَعْلَمُه غَيْرَه؛ حتى خُصَّ بِمعرفةِ أسماءِ المنافِقِين وبِكَثيرٍ مِنَ الأمُورِ الآتِية".[1]

وإني لأُوصِي كلَّ مُسلمٍ بِوُجُوبِ الحذرِ مِن فِتنَةِ التبديلِ والإحْداثِ، فقد روى البخاري في باب (ما جاء في قول الله تعالى: {**وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**} (**الأنفال: 25**) وما كان النبي ρ يُحَذِّرُ من الفِتَن) عن ابنِ أبي مُلَيْكَة قال: قالت أسماء عن النبي ρ قال: (أنا على حَوْضِي أنتظرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ، فيُؤخَذُ بناسٍ مِنْ دُوني، فأقولُ: أمتي؛ فيقال: لا تدري؛ مَشَوْا على القَهْقَرَى)، قال ابنُ أبي مُلَيْكة: اللَّهم إنا نَعُوذُ بك أنْ نَرجِعَ على أعْقابِنا أو نُفْتَن في دِينِنا). قال ابنُ حَجَر: "يُشِيرُ إلى ما تَضَمَّنَه حديثُ البابِ مِن الوَعِيدِ على التَّبدِيلِ والإحْداثِ؛ فإنَّ الفِتَنَ غالِباً إنما تَنْشَأُ عن ذلك، ثم ذَكَرَ حَديثَ أسماء بنتِ أبي بكر مَرفوعاً: (أنا على حوضي أنتظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ فيُؤخَذُ بِنَاسٍ ذات الشمال...) الحديث، وحديث عبد الله بن مسعود رَفَعَهُ: (أنا فَرَطُكُمْ على الحوضِ؛ فَلَيُرْفَعَنَّ إلَيَّ أقوامٌ...) الحديث، وحديث سَهل ومعه حديث أبي سعيد (إنك لا تدْري ما أحْدَثُوا بعدك).[2]

وقد اعتنى هذا البحثُ ببيانِ آثارِ الفتنة من الناحيةِ الإيمانيةِ؛ فكلما قَلَّت التقوى في القلوبِ، وضَعُفَ الاعتِصامُ بالكتابِ والسُّنةِ؛ كان من وراء ذلك بلاءٌ عظيم.

---

1 فتح الباري 37/13. قال: ويُؤخَذُ مِنه أنَّ مَنْ أدبِ التعليمِ أنْ يُعلِّمَ التلميذَ مِن أنواعِ العُلومِ ما يَراه مائلاً إليه مِن العلوم المباحة؛ فإنه أجْدَرُ أنْ يُسْرِعَ إلى تَفَهُّمِه والقِيامِ به. قلت: رحم الله ابنَ رجبَ؛ ما أعظمَ وَعْيَه التربويَّ؛ فأينَ هذا الفهمَ مما نراه اليومَ في جامعاتنا ومعاهدنا؟ *فيا ضَيْعَةَ الأعمارِ تمشي سَبَهْلَلا!* فهذه كذلك من الفتنِ التي لا يفطن لها كثيرٌ من الناس. والله المستعان!

2 فتح الباري 4/13.

ولا يخفى على أُولي الألباب آثارُ الفتنةِ من الناحيةِ الاجتماعيةِ؛ حيث يُلاحَظُ ذلك في كثرةِ الاختلافِ والتنازعِ وحُصولِ الفرقةِ والشتات؛ وقد حذَّرَنا اللهُ عز وجل من ذلك، فقال: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال: **46**).

أسأل الله العظيمَ ربَّ العرشِ الكريم أن يُجَنِّبَنا والمسلمين الفِتَنَ: ما ظهَرَ منها وما بَطَن، وأن يُحسِنَ ختامَنا، ويَرُدَّنا إلى الإسلامِ ردّاً جميلاً.

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.